الفصل الخامس

كـارلـوس

* صورة عن قرب

سجن فريسنيى ٧/ ١٢/ ٩٧

إلى حبيبتى لينا . .

إن معاناتى من الكرب لاختفائك لا نهاية لها . وقد أهمل ذلك لو عرفت أنك مازلت على قيد الحياة، بعد اختطافنا فى الخرطوم، وإذا لم تعودى على هذه الأرض فإنك مازلت حية فى قلبى، وعندما انضم إليك فى الجنة إن شاء الله، فإنك ستكونين زوجتى الوحيدة . وليمنحنى الله القوة لأن أصمد عاطفيًّا بعد هذا الامتحان لإيمانى واعتقاداتى . إننى فدائى قديم، ولكن أيضًا مجاهد شاب فى حربنا لتحرير القدس المقدسة وبقية فلسطين . فليبارك الله ويحفظ ويقوى حبنا .

الله أكبر!

زوجك المحب، ايلتش

لقد أرسلت إليك صورة من السجن .

* * سوف يحتاج العالم لفترة طويلة، قبل أن يتوصل إلى الإجماع اللازم لإصدار حكم التاريخ الحاسم والنهائى على هذا الرجل . . كان أكثر من نصف سكان الكرة الأرضية يتطلعون إليه بانبهار، ويرونه فارس ذلك الزمان، البطل

obeikandl.com

الدرامى الذى يتحدى قدره وأقدار الآخرين.. شمشون الذى ولد من البرق والرعد، وجاء لينتزع حقوق الضعفاء من أيدى الأقوياء.

وفجأة تغير الزمان، وأصبح الرجل مجرد سفاح إرهابى وقاتل محترف مأجور، قال عنه المثقفون الديمقراطيون: إنه داهية، انتهازى، متسلق، استغل الحرب الباردة ونظام الكتلتين؛ لكى يشبع نزواته المريضة، ويحقق ذاته متدثرًا برداء الأيديولوجية الاشتراكية.

الغريب أن الجميع كانوا على حق، فقد نظر كل طرف إلى الرجل من الزاوية التى تناسبه، أما الحقيقة فكانت بالتأكيد هناك فى مكان آخر، يقع فى منطقة ما بين فردوس الملائكة وجحيم الشياطين.. هناك عاش صاحبنا حياة تعكس باختصار دقيق قصة العالم، خلال نصف قرن، وهو تقريبًا عمر هذا الشقى الذى خرج من رحم أحد بلدان أمريكا اللاتينية؛ ليهز أركان الدنيا بصورة لن تتكرر فى التاريخ.

قضى عمره كله يبحث عن دور ـ دون أية قيود ـ مهما تباينت الوسيلة. مشكلته الحقيقية أنه حاول أن يضبط موجته على طول موجة كل عصر، وذبذبة كل نظام، وعجز عن إدراك أن هذه الموجة متغيرة وتلك الذبذبة متقلبة، وأن من يترك نفسه لأمواج الزمن الهادر، لابد أن يصطدم ذات يوم بصخرة الواقع الصلبة والقاسية.

«فيفا لا ريفوليثيون» (تحيا الثورة!)، صاح كارلوس، بلسانه الإسبانى الأم، لدى سماعه الحكم الذى أصدرته بحقه محكمة باريسية يوم الثلاثاء ١٩٩٨/١٢/٢٣، والقاضى بسجنه مدى الحياة.

وقد دوت تلك الصيحة، بائسة وقوية فى الآن نفسه، وكأنها محاولة يائسة من قبل كارلوس للاستنجاد بذلك التراث الثورى الأميركى اللاتينى المعلوم، ولاستحضاره والاندراج فى عداده وفى سلالته. ولكن الصيحة تلك ذهبت سدى فالحقبة ما عادت تتسع لـ «الريفوليثيون»، أو هى ما عادت تتسع لذلك

النمط منها الذى احترفه كارلوس ودرج عليه، طوال السبعينيات وبعض من الثمانينيات. وإذا كانت الذاكرة ما فتئت تتطلع بحنو صوب رموز، مثل: «تشى جيفارا»، أو حتى صوب التمردات الطلابية اليسارية السابقة، إلا أنها ما باتت تعبأ بمن هم من فصيلة كارلوس، أو الجيش الأحمر اليابانى، أو الألوية الحمراء الإيطالية، أو عصابة بادر ماينهوف الألمانية.

ولعل عمل الذاكرة هذا هو أهم ما يلفت ويستوقف فى محاكمة كارلوس الأخيرة؛ فذلك الرجل الذى كان رمزًا للإرهاب، أو للكفاح المسلح، فى السبعينيات ومطلع الثمانينيات، وأتى فى ذلك جرائم فظيعة حسب أعدائه، وبطولات خارقة حسب من أعجبوا به.. تواطأ الجميع خلال محاكمته، قضاة ورأيًا عامًّا ووسائل إعلام، على إغفال تاريخه، بما له، إن كان له ما له وبما عليه؛ فمثل أمام القضاء مجرمًا عاديًا يخضع للملاحقة بسبب جريمة قتل عادية، أو هى انتهت إلى اتخاذ هذا البعد والاكتفاء به.

ولاشك أن المحاكمة المذكورة كانت تجربة بالغة القسوة على كارلوس، ليس فقط لأنه اعتقل، وكان عليه أن يخضع إلى المساءلة القضائية، فهو كان لاشك يعلم، أن زمنه قد ولى وانتهى، وأن الحقبة الأخيرة التى كان يرمز إليها قد انتهت إلى غير رجعة. وأنه ما كان أمامه من مخرج، بعد نهاية الحرب الباردة، حتى لو لم يلق عليه الفرنسيون القبض، سوى التنقل من ملجأ إلى ملجأ، حتى لحظة اعتقاله، أو تسليمه إلى هذا الطرف أو ذاك، عاجلاً أم آجلاً.

إذًا كان كارلوس يتوقع ـ دون شك ـ المآل الذى كان من نصيبه فى فرنسا، بل هو ربما كان يتوقع ما هو أحلك منه؛ فقد كان من حسن حظه أنه وقع فى بلد ألغى عقوبة الإعدام، منذ مطلع الثمانينيات، ولكن ما هو مؤكد أن كارلوس كان يحلم بمحاكمة غير تلك التى أخضع لها، محاكمة تاريخية مدوية، يحتل خلالها موقع الصدارة، وتمكنه من الخروج من النضال السياسى، أو من التاريخ من أوسع أبوابه مرفوع الرأس، معتزًا بكل ما قام به، ولكن من باب النبل الثورى،

فينجح فى محاكمة من يزعمون محاكمته، رادًّا على مرافعاتهم الجنائية الوضيعة بمرافعات سياسية رفيعة، تخاطب التاريخ وتضع نفسها، وتضعه، فى مستواه وندًّا له. وقد استعد كارلوس بالفعل لموعد محاكمته بكل ما أوتى من جهد، فهو ما انفك منذ أن استحضره الفرنسيون من السودان سنة ١٩٩٤، يعدّ العدة لذلك الاستحقاق، ويحضر الملفات ويضع استراتيجيته الدفاعية، وهو قد أقبل على تلك المحاكمة إقبال الواثق من نفسه، الحريص على عدم تفويت الفرصة.

ولكن الأمور لم تسر على هذا النحو؛ فالقضاء الفرنسى لم يبد اهتمامًا بكل التاريخ الثورى أو الإرهابى، لكارلوس، مفضلاً التوقف عند حادثة واحدة هى المعروفة بحادثة شارع توليبه فى الحى اللاتينى من باريس، تلك التى حصلت سنة ١٩٧٥، (سنورد تفاصيلها لاحقًا)، وقد التزم القضاء هذه الحادثة لايحيد عنها، مهملاً كل ما عداها، مما فعله كارلوس، وبعض أعماله عدّ فى حينه خارقًا مثل تمكنه من اختطاف وزراء نفط بلدان الأوبك من فيينا، وسوقهم إلى الجزائر، حيث تم الإفراج عنهم بعد مفاوضات مضنية مع سلطات ذلك البلد، الذى كان بدوره ثوريًّا فى ذلك الزمان.

والحقيقة أن حصر محاكمة كارلوس فى حادثة شارع توليبه دون سواها، لم يكن خيارًا انفرد به القضاء الفرنسى لأسباب قانونية تقنية، أو كمناورة بارعة، ولكن ذلك ترافق مع لامبالاة واسعة تجاه كارلوس وماضيه ومحاكمته. فليس بين البلدان والأطراف التى تضررت من أعمال الثورى الفنزويلى الأصل، الفلسطينى الهوية، من تقدم بشكوى ضده أو من طالب باسترداده من أجل محاكمته؛ حتى الولايات المتحدة التى نصبت نفسها زعيمة لمكافحة الإرهاب فى العالم، أبدت تجاه كارلوس وقضيته فتورًا كبيرًا، سواء فى ملاحقته قبل أن يتمكن الفرنسيون من استجلابه، أو بعد ذلك. والدرجة نفسها من اللامبالاة يلحظها المرء فى وسائل الإعلام، فهذه الأخيرة، سواء فى فرنسا أو خارجها، وإن تابعت المحاكمة بما لا يكاد يتعدى أية نظيرة لها تتعلق بجريمة قتل عادية، إلا أنها تجنبت الإفراط فى

ذلك، وكأن الماثل أمام القضاء لم يكن كارلوس، ذلك الذى طغى اسمه على حقبة بأسرها، ودوّخ أجهزة الأمن الغربية لسنوات طويلة.

وحتى عندما كتب أحدهم مقالاً فى إحدى الصحف الفرنسية، داعيًا إلى الربط بين محاكمة كارلوس ومحاكمة «موريس بابون» فى مدينة بوردو، بتهمة الإجرام فى حق الإنسانية، لإشرافه على تسليم مئات اليهود إلى سلطات الاحتلال الألمانى، إبّان الحرب العالمية الثانية، قائلاً: إن ما يجمع بين المتهمين، فى الحالتين، إنما هو عداؤهما المشترك لليهود، لم تلق دعوته تلك استجابة وما اتبعه فيها أحد. وإذا كانت المقارنة بين المحاكمتين واردة، بل مطلوبة، فليس على ذلك النحو الذى ذهب إليه المعلق المذكور، ولكن أهمية مثل تلك المقارنة تمكن تحديدًا فى معاينة طريقة تعامل الذاكرة مع الحقبة، التى يرمز إليها كل من المتهمين، وكيف أن الأقدم عهدًا بينهما تبدو الأشد حضورًا، راهنة إلى أبعد الحدود، فى حين تبدو تلك التى تزيد عن العقد إلا قليلاً، وكأنها تنتمى إلى زمن سحيق لايعنى أحدًا، إذا ما استثنينا ذوى الضحايا، وكيف أن الأولى، تلك المتعلقة بـ «بابون»، تستحضر بكل تفاصيلها، من قبل شعب بأسره، وكأنها تحيل إلى جرائم اقترفت للتو، فى حين أن الثانية، تلك التى يرمز إليها كارلوس، تعامل بالتجاهل ولا تستثير أحدًا أو لا تكاد. هكذا يبدو بابون ابن السابعة والثامنين، أقرب ـ وإن كان من باب الإدانة والاستنكار ـ إلى مشاغل اللحظة، من كارلوس ابن الثامنة والأربعين، وإذا ما تنبهنا إلى هذه النقطة.. فإن ذلك قد يساعدنا على وضع الإصبع على مأساة كارلوس، ذلك الذى لايهتم أحد بتاريخه، والحقبة التى يرمز إليها، فلا أحد يريد أن يستحضرها، أو أن يحاكمه من خلالها، فاكتفى القضاء بحادثة واحدة، كفيلة مثلها فى ذلك مثل عشر، بتسليط العقوبة عليه، وطى صفحته فى غياهب السجن المؤبد.

إن مأساة كارلوس إذًا أنه، وهو ابن الثامنة والأربعين، لم يعد معاصرًا لشىء أو لأحد!

أيليتش راميريز سانشيز هو الرجل الذى حمل مئات الأسماء، وأطلقت عليه مئات الصفات، بقى منها كلها اسم واحد هو كارلوس، وصفة يتيمة هى الإرهابى، أو الرجل ذو الألف وجه، الذى يقول عن نفسه: «لست صاحب ألف وجه، ولكنى فقط حاولت أن أعيش ألف زمن».

بعد سقوط الشيوعية فى شرق أوروبا خاصة فى ألمانيا الشرقية، بدأت السلطات هناك فى نشر غسيلها القذر. وقد سقط كارلوس الذى كان ينظر إليه الشيوعيون هناك كبطل فى ألمانيا الشرقية، وأصبحت الوحدة بين الألمانيتين الشرقية والغربية حقيقة واقعة، ولأن هذا حدث ودفنت الشيوعية. فقد بدأ الألمان فى نشر ملفاتهم، التى كانت يومًا ما فى غاية السرية؛ فقد صرح «بيتر ميشيل ديستل» وزير الداخلية فى ألمانيا الشرقية بأن نظام الحكم الشيوعى السابق فى ألمانيا الشرقية كان يؤوى كل الإرهابيين الدوليين، المطلوبين للعدالة؛ لارتكابهم مذابح ضد المدنيين الأبرياء، وعلى رأس هؤلاء الإرهابيين يأتى السفاح الدولى «كارلوس»، الذى كان يلقب بابن آوى، وأضاف أن النظام الشيوعى فى ألمانيا الشرقية كان نقطة انطلاق وموطئ قدم لكل الإرهابيين، ينطلقون منها لتنفيذ عملياتهم ضد المدنيين والأهداف الغربية. وأكد هوديستل أن «إيريك هونيكر» زعيم ألمانيا الشرقية السابق، و«إيريك منليك» رئيس البوليس السرى فى عهده، قد ساعدا كارلوس، وعمدا إخفائه مدة طويلة.

وقال هوديستل: إن الوثائق التى عثر عليها بعد توليه مهام وزير الداخلية تؤكد يقينًا أن جهاز الـ «ستاسى» ـ البوليس السرى فى ألمانيا الشرقية ـ كان المحرك الرئيسى لكارلوس وغيره من الإرهابيين الدوليين، الذين كانوا يشعرون فى بلاده بالأمان الكامل، حيث كانوا يترددون على المطاعم والأندية الليلية، ويقيمون فى فندق «متروبول» فى برلين الشرقية. أما كارلوس.. فكان زبونًا مستديمًا على منزل «برلين»، المقر الرسمى للعاهرات الرائعات الجمال التابعات للـ «ستاسى».

وكشف هوديستل أن كارلوس ابتداء من عام ١٩٧٩ كان يتردد على ألمانيا

الشرقية بجواز سفر، يحمل اسم «أحمد عادل فوزى»، وأنه كان ضيفًا عزيزًا على سفارات بعض الدول المتطرفة، وأنه كان يحصل على تأشيرة بلاده فى التو واللحظة، بتوصية خاصة من هونيكر ومنليك.

* * بعض الناس اعتقد خاطئًا أنه بالقبض على كارلوس فإن صفحة الإرهاب السياسى قد طويت.. لكن الأمر ليس بهذه البساطة، فـ «كارلوس» ليس فردًا، وإن كان هو الزعيم والرأس المدبر لأكبر عمليات الإرهاب السياسى الدولى فى التاريخ، وإنما هو مؤسسة دولية كبيرة ومعقدة!

فالرجل الذى اقتحم مطار أورلى بباريس وهاجمه بالصواريخ بعد ستة أيام فقط (من الاقتحام)، ونجح فى خطف طائرة واحتجاز رهائن، وحين تمكن رجال مكافحة الجريمة الفرنسيون من إلقاء القبض عليه فى بيته قتلهم جميعًا، وتمكن من الهرب، ولم يترك خلفه أى دليل يدينه، هذا الرجل بهذه المقدرة الفائقة يصبح من الصعب تخيله يعمل منفردًا فى ميونيخ بألمانيا الغربية، إذ خطط لاغتيال ١١ لاعبًا إسرائيليًّا فى الدورة الأوليمبية المقامة هناك فى عام ١٩٧٢ وكان عمره ٢٣ سنة فقط! وفى فيينا بالنمسا قاد عملية الهجوم على مقر اجتماع الأوبك لوزراء البترول فى العالم فى عام ١٩٧٥، فلقى ثلاثة مصرعهم، واختطف ١١ منهم كرهائن، وكان بينهم وزير البترول السعودى آنذاك أحمد زكى يمانى، ونقلهم بطائرة إلى شمال إفريقيا، وأطلق سراحهم فى الجزائر مقابل فدية قدرها مليار دولار، وكان عمره وقتها ٢٦ سنة فقط.

إسرائيل ردت على اغتيال لاعبيها الأوليمبيين باغتيال ١١ من كبار الشخصيات الفلسطينية، فى مختلف أنحاء العالم وبالذات فى بيروت، ولكنها فشلت فى اغتيال كارلوس.

وكان لفرنسا النصيب الأكبر من عمليات كارلوس. فغير اقتحام مطار أورلى، كان هناك هجوم مسلح آخر فى باريس فى عام ١٩٨٢، وهو ما اتهم به وحكم عليه غيابيًّا بسببه، كما اقتحم السفارة الفرنسية فى «لاهاى» بهولندا، واختطف

طائرة ركاب تابعة للخطوط الجوية الفرنسية، واقتادها إلى مطار «عنتيبى» بأوغندا فى عام ١٩٧٦، وكان على متن الطائرة رجال أعمال وسواح إسرائيليون؛ لذا تكفل الموساد الإسرائيلى بإنقاذ الرهائن بعد معركة شرسة.

وبعد القبض على كارلوس تقدمت بريطانيا بطلب لتسلمه ومحاكمته على محاولة اغتيال نائب رئيس الاتحاد الصهيونى البريطانى فى لندن، ورئيس شركة محلات «مارك أند سبنسر»، جوزيف إدوارد ستيف، فى عام ١٩٧٣. والسؤال المطروح الآن: لماذا قبض على كارلوس؟ هل انتهت مهمته ولم تعد الأنظمة بحاجة إليه؟ هل انتهى دوره بنهاية الثمانينيات (فليست له عملية تذكر فى السبعينيات) وبنهاية الحرب الباردة، وبدء تكوين نظام عالمى جديد؟ ولماذا لم يعد أحد راغبًا فى استغلاله أو حمايته؟

هناك من يقول بأن كارلوس انتهى كأسلوب إرهاب. فالأهداف والأساليب فى تنفيذ الجريمة السياسية قد اختلفت تمامًا عما كانت عليه فى سبعينيات كارلوس، كذلك اختفت الأهداف الأيديولوجية الدولية الضخمة، وحلت محلها أهداف قومية ومحلية صغيرة، لا تستطيع أن تتحل (ولا يفيدها) إرهابًا من هذا النوع العابر للقارات (طلبت منه سوريا مغادرة أراضيها فى أوائل ١٩٩٤).

ولأن نمط الإرهاب على طريقة كارلوس قد ارتبط عضويًّا بالحرب الباردة؛ لذلك تقلصت ظاهرة كارلوس مع انهيار الاتحاد السوفيتى، وقبل القبض على كارلوس بوقت طويل؛ فمنذ العام ١٩٨٢ لم يثبت تورطه فى أى عملية إرهابية وحتى القبض عليه.

ولكن ما حقيقة عملية القبض على «الثعلب»؟ وما الثمن الذى قبضته الخرطوم، التى تسير فى فلك إيران رافعة لواء الأصولية؛ لكى تتخلى فجأة عن إرهابى معروف بخدماته لها؟

حتى الآن يصر الطرفان الرسميان الفرنسى والسودانى على نفى وجود صفقة خلف عملية تسليم كارلوس إلى فرنسا، ووضعت الأخيرة كل تفاصيل العملية

تحت خاتم «السر العسكرى»؛ غير أن المؤشرات تشير إلى غير ذلك، وتتبنى فكرة وجود مصلحة متبادلة فى هذه العملية. ومن المؤكد أن الخرطوم المتهمة من قبل الولايات المتحدة والدول الغربية بأنها تقيم على أرضها معسكرات لتدريب الأصوليين بهدف تصدير الثورة الإسلامية، أرادت تبييض صورتها أمام العالم بالإيحاء بأنها تشارك فى تقديم الإرهابيين للعدالة، وبالأحرى فإنها لا تؤويهم.

وبالفعل فما إن أعلنت فرنسا نبأ اعتقال كارلوس بمساعدة السودان، حتى سارع وزير العدل السودانى عبد العزيز شدو إلى التوجه إلى الولايات المتحدة طالبًا رفع اسم السودان من قائمة الدولة الداعمة للإرهاب الدولى، وبعدها بيوم واحد كشف النظام السودانى أنه حريص على قبض الثمن بسرعة، بمطالبته صندوق النقد الدولى بمساعدات مالية، وعودة أوروبا إلى تقديم مساعدات اقتصادية من قمح ومواد غذائية إلى بلاده، وهنا يبرز القسم الأول من المقايضة.

والواقع أن القصة هى أبعد من سعى الخرطوم لشهادة حسن سلوك دولية ومساعدات اقتصادية، وتؤكد بعض المصادر أن مخطط عملية القبض على كارلوس، هو الشيخ حسن الترابى؛ فالرجل الذى يعدّ الرأس المدبر لنظام عمر البشير الإسلامى فى الخرطوم يطمح ـ من خلال رئاسته المؤتمر الشعبى العربى الإسلامى، ودعم كل الحركات الأصولية ـ إلى رئاسة ما يعرف بالأممية الإسلامية، والترويج لخط إسلامى مغاير ـ كما يدعى ـ للثورة الإيرانية الخمينية. وهو يلبس قناع الليبرالية والاعتدال فى تعامله مع الغرب، دون أن يتخلى عن الراديكالية فى نهجه الأصولى. وقد تمكن الترابى من الاستفادة من براجماتيته هذه، استغلال كونه فرانكفونيًّا، من بناء شبكة علاقات مع عدد من المسئولين الفرنسيين، ترجمت بسلسلة زيارات متبادلة قام بها مسئولون فى المخابرات الفرنسية، سياسيون ومبعوثون من قبل وزير الداخلية شارل باسكو إلى السودان. وفى المقابل استقبلت باريس عددًا من المسئولين الأمنيين السودانيين فى مقدمتهم رئيس جهاز الأمن «الفاتح عروة»، الذى يحتل موقع وزير، وسبق له أن تتلمذ على أيدى مخابرات ألمانيا الشرقية، ثم استمالته الـ «CIA»

أيام النميرى، قبل أن يتحول إلى أحد أبرز رموز النظام الإسلامى فى السودان.

وتنظر فرنسا إلى السودان على اعتبارات موقعه الاستراتيجى الحساس بين إفريقيا (وبصفة خاصة الفرانكفونية) والعالم العربى؛ فباريس تخشى من أن تؤدى الهجمة الأصولية فى اتجاه بناء حزام إسلامى إفريقى بدعم سودانى وإيرانى من زعزعة استقرار دولى، لفرنسا مصالح حيوية فى بلدانه مثل تشاد، التى تمتد على حدود مشتركة مع السودان طولها ٨٠٠ كم، وإفريقيا الوسطى والكاميرون التى يمكن أن يصل إليها المد الأصولى الإسلامى.

وتتخوف باريس كذلك من سياسة أمريكية تحاول أن تحل محلها، وتلعب دورها فى القارة السوداء، وما أكد ذلك وزاد من مخاوف الفرنسيين، هو الدور المهم الذى لعبه الأمريكيون فى دعم ثوار الجبهة القومية الرواندية التى سيطرت على الحكم فى البلاد، باعتمادها على أوغندا التى تعدّ قاعدة أمريكية؛ مما أدى إلى قيام حكم «أنجلوفونى» فى رواندا. والعداء مستحكم بين السودان وأوغندا التى تسلح وتؤوى الانفصاليين الجنوبيين، وبالطبع بين الخرطوم والولايات المتحدة التى تدعم الجنوبيين كذلك لأجل تقسيم السودان، وتتبنى فكرة فرض حصار دولى عليه، وتملك خطة جاهزة للتدخل العسكرى فيه. ومن هنا كان سعى الترابى إلى المراهنة على الدور الفرنسى والدعم الأوروبى، وكذلك تفريغ التهمة الأمريكية له بالإرهاب من محتواها، حين يقدم للعدالة الفرنسية رأس عميلهم الأسبق (كارلوس) على طبق من فضة. ومن ناحيتها فقد وفّت فرنسا لاحقًا بتلك الآمال التى عقدت عليها؛ إذ امتنعت أكثر من مرة عن التصويت فى الأمم المتحدة على مشاريع قرارات لإدانة السودان بمساعدة الإرهاب أو لفرض حصار دولى عليه.

اعتبر الباحث البريطانى «ديفيد بالوب»، الذى نشر كتابًا فى عام ١٩٩٣ عن «ابن آوى»، أن اعتقال كارلوس سبّب حرجًا كبيرًا لعدد من دول الشرق الأوسط؛ لأنه بمثابة دائرة معارف متنقلة، عن مخابرات تلك الدول وأنشطتها الإرهابية وشبكات عملائها، وأن تلك الدول كانت تفضله ميتًا. ويخالف بالوب

الرأى السائد عن كارلوس، ويقول: إنه «مدع للثورية»، وإنه إرهابى تنقصه الكفاءة، كما أنه كان يضطر للقتل بسبب سوء التدبير والذعر، وليس عن سابق إصرار وتخطيط.

* * كارلوس من مواليد ١٢ أكتوبر ١٩٤٩، أمه اسمها السنيورة «سانشرد ورامبرين» تهوى جمع التحف القديمة وقضاء السهرات فى الحفلات، أما والده «التاجر اسيا راميريز» فهو فى الأساس محامى ثرى، كان يحلم فى شبابه أن يصبح قسيسًا. ولكن الأب الفنزويلى الذى عاش معظم عمره فى العاصمة كاراكاس، كانت له ميول ماركسية لينينية؛ فهو من الأقباط الأرثوذكس الذين عشقوا الثورة البلشفية (١٩١٧)، حتى إنه أطلق أسماء لينين ورفاقه على أبنائه الذين يكبرون كارلوس.

فى «كاراكاس» مسقط رأس «كارلوس» عرف عن هذا الطفل أنه من النوع الهادئ الحالم، الذى يعشق الموسيقى؛ خاصة العزف على الجيتاز وملاحقة الفتيات فى هدوء. كان مثله الأعلى الممثل العالمى جيمس دين فى بداية الأمر، ثم تحول مثله الأعلى ليصبح تارة «زابات» وتارة أخرى «كاسترو»، ومرة ثالثة «جيفارا». وفى شبابه قررت الأم أن يستكمل ابنها تعليمه فى الخارج، واختارت له بريطانيا ليدرس فى جامعة لندن اللغة الإنجليزية وأساليب وعادات المجتمعات الراقية. وفى لندن ـ وبدلاً من أن يدرس الإنجليزية ـ قام كارلوس بدراسة اللغة الروسية، بعدها سافر ليلتحق بجامعة «باتريس لومومبا» فى موسكو!

فى هذه الجامعة تعرف عديدًا من الأصدقاء والرفاق، وظل بها لمدة عامين، ولكن التقارير السرية الخاصة بكارلوس فى موسكو أكدت أن هناك فجوة زمنية حدثت لمدة ٧ شهور، اختفى خلالها كارلوس من الجامعة تمامًا ولم يُعْرَف أين ذهب؟ بعدها طرد من الجامعة الروسية فى عام ١٩٦٩، وقيل فى ذلك الوقت: إن سبب طرده من الجامعة هو اتجاهاته المناهضة للشيوعية وأنه عدو لها! ولكن الخبراء فيما بعد أكدوا أن هذه التهم التى وجهت إليه فى موسكو مجرد خديعة

قامت بها أجهزة المخابرات السوفيتية «كى جى بى» للتمويه فقط، بعد أن تم تدريبه خلال فترة انقطاعه عن الدراسة، وأعلنت السلطات الروسية فى ذلك الحين طرد كارلوس من البلاد؛ لينطلق نحو الغرب، وهو يحمل شهادة معادية للشيوعية!

اتجه كارلوس بعد ذلك إلى ألمانيا الشرقية ثم إلى عمان، وتدرب فى معسكرات خاصة هناك على أساليب استخدام الأسلحة والمتفجرات. وكانت تقارير معملية فى هذا الصدد تؤكد أن كارلوس له قدرات رهيبة وهائلة.. وقد تعرف خلال فترات التدريب على عناصر من قوات الإرهاب الألمانية، التى كونت بعد ذلك قوات الجيل الأحمر.

وقد بدأ كارلوس حياته الثورية فى عام ١٩٦٤ من خلال انضمامه إلى حركة الطلاب الشيوعية فى شوارع كاراكاس، وتوجه لاحقًا إلى كوبا؛ حيث تلقى تدريبات على حرب العصابات. وفى عام ١٩٦٨ رشحه الحزب الشيوعى الفنزويلى لتلقى دورات خاصة فى جامعة لومومبا فى موسكو، حيث كان جهاز الاستخبارات السوفيتية السابق الـ «كى جى بى» يشرف على اختيار شخصيات من دول العالم الثالث؛ لتجنيدهم كعملاء للجهاز أو إعدادهم ليصبحوا كوادر سياسية فى أوطانهم، وقد طرد كارلوس من الجامعة لعدم جديته، أو هكذا زعم الروس للتمويه، ولكنه أقام هناك علاقات صداقة مع مناضلين فلسطينيين، وانضم إلى «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» فى فصيل تابع للدكتور وديع حداد، الذى توفى فى ألمانيا الشرقية السابقة فى عام ١٩٧٨، وقد وصف حداد بأنه معلم كارلوس (فى حين كان جورج حبش هو رئيسهما معاً).

لكن ثورية كارلوس لم تنحصر بالجبهة الشعبية؛ فانضم إلى تنظيمات أخرى مثل «بادر ماينهوف» الألمانية والجيش الأحمر اليابانى، و«منظمة الباسك» الإسبانية، وجبهة التحرير الشعبية التركية، وكانت عملياته خلال تلك الفترة لاتعد ولاتحصى، إلا أن معظمها تم فى أوروبا.

والغريب فى الأمر أن والد كارلوس، الشيوعى المليونير، كان دائمًا فخورًا بما يفعله ولده؛ لأنه ـ على حد قوله ـ يؤمن مثله بأن العنف الثورى طريق الثروة.

وقد أعلن الشيوعى المليونير العجوز أنه راض كل الرضا عن أعمال ابنه.. قال والفخر يملأ ملامح وجهه: لقد أصبح ابنى جنرالاً، وهكذا كان الحديث وقتذاك يجرى فى مدينة «سان كريستينو الممطرة»، والتى ترتفع ٢٠٠٠ قدم فى مرتفعات جبال الإنديز الرطبة، وكان ذلك بعد شهر من حادث الأوبك، الذى كان من أكثر الحوادث إثارة فى السنوات الأخيرة.. والمتحدث هو أبو كارلوس، المصنف فى الغرب بالإرهابى العالمى رقم ١.

والدكتور «جوزيه آلتاجر آسيار اميريز نافاس» الذى كان يعمل محاميًا، كان قد تجاوز الستين من العمر، وقد جمع ثروة طائلة من الصفقات التجارية؛ حتى أصبح من أصحاب الملايين، على الرغم من أنه شيوعى متحمس.

وقد شاطرت الدكتور راميريز فخره وزهوه بابنه، بعض الصحف التى كانت تصدر فى كاراكاس، عاصمة فنزويلا، التى شبهته بسيمون بوليفار، بطل حروب الاستقلال ضد إسبانيا.

والغريب أن الدكتور راميريز كان يتجه اتجاهًا دينيًّا، وكان مقدرًا له أن يصبح قسيسًا، ولكنه آثر اعتناق الشيوعية وتأثر بها إلى حد كبير، فترك الكنيسة وغادر فنزويلا إلى بوجوته، عاصمة كولومبيا حيث درس القانون. وفى تلك الأثناء اندلعت الحرب العالمية الثانية، فتبلورت أفكاره وآراؤه السياسية، وتأثرت بآراء زعماء الحزب الشيوعى.

يقول المحامى فى هذا الصدد: «لقد كنت شيوعيًّا مواليًا للسوفييت حتى عهد خروشوف، ولكننى أعتقد بأن الأحزاب الشيوعية أصبحت أحزابًا محافظة، إننى أتعاطف الآن مع اليسار المتطرف».

وكان الشيوعى المليونير يعتقد أن التحول من النظام الرأسمالى إلى النظام الاشتراكى لا يتأثر إلا بالكفاح المسلح «ولهذا فإننى كسياسى وفلسفى متفق تمام الاتفاق مع ابنى ايلتش كارلوس، وإن كنا قد نختلف قليلاً حول المسائل الاستراتيجية». ولكن كيف تم تجنيد كارلوس رسميًّا حتى يمارس الإرهاب فى أعنف صوره، ويصبح أخطر رجل عرفه العالم فى عصره؟!

*** الساعد الأيمن:**

القبض على «فيزيتش» كان بمثابة ضربة فى الصميم لكارلوس؛ لأن الأول ليس مجرد اليد اليمنى فقط، بل شريك لكارلوس فى كل العمليات الإرهابية التى نفذتها عصابته منذ عام ١٩٧٦.. فهو المخطط والمنفذ وحامل المستندات والرأس المدبرة التى شاركته فى تنفيذ كل العمليات الإرهابية.. وبالقبض على فيزيتش فى اليمن فى أوائل يونيو من العام ١٩٩٥، وترحيله إلى ألمانيا، ثم فرنسا للمحاكمة، تمكن القاضى المسئول عن قضية كارلوس من إضافة عديد من الاعترافات والوثائق، التى تدين هذا الإرهابى الكبير.

من ناحية أخرى جاءت عملية القبض على فيزيتش؛ لتقلق عديدًا من الحكومات، التى سبق وتعامل معها، وقامت بحمايته لفترات طويلة، مثل: ألمانيا الشرقية ـ سابقًا ـ والمجر وتشيكوسلوفاكيا، وبعض دول الشرق الأوسط التى معها فى تنفيذ عمليات إرهابية.

وجاء فى التحقيق الصحفى الكبير، الذى نشرته جريدة «فرانس سوار» الفرنسية حول إلقاء القبض على اليد اليمنى لكارلوس فى اليمن، أنه ليس آخر فرد فى عصابة كارلوس، فمازال هناك عشرات يعيشون ـ تحت أسماء مستعارة ـ بكامل حريتهم، على الرغم من سقوط الرءوس الكبيرة! المخابرات الأمريكية والمخابرات الفرنسية والألمانية اشتركت جميعها معًا لأول مرة؛ لرصد تحركات المساعد الأول للإرهابى كارلوس.. لقد كان ينتقل وبصفة مستمرة بين برلين

وبراج وموسكو ورومانيا ودمشق.. وبعد طرده من سوريا، استقر لفترة فى جيبوتى، ولكنه سافر بعد ذلك إلى اليمن، التى كان يعشق الإقامة فيها!.. واستخدم فيزيتش خلال تواجده فى اليمن جواز سفر دبلوماسيًّا يمنيًّا تحت اسم «عبد النبى محمد حسين».. من مواليد عدن ١٩٤٧! وكانت السلطات اليمنية تحميه بصفة مستمرة؛ حتى إنه فى عام ١٩٧٩ عندما كان فى براج، وطلب منه السفر إلى بودابست فى مهمة عمل، وطلب تأشيرة دخول من السفارة المجرية تحت اسم «ثابت على بن على»، وعندما تشكك الموظف فى مدى صحة جواز سفره، تدخل السفير اليمنى فى المجر وأكد للسلطات هناك بأنه شخصية يمنية مهمة جدًا.. ومنذ عام ١٩٩٠، وفيزيتش يتواجد بصفة مستمرة فى لبنان لتدريب عملائه هناك فى معسكرات خاصة بهم، وكان دائمًا يجند الشباب الأوروبى للعمل معه فى مختلف وسائل الإرهاب.

ولكن عقب إلقاء القبض على كارلوس فى أغسطس من عام ١٩٩٤، بدأت تحركات فيزيتش ترصد فى كل مكان، وبدأت بعض الدول ترفض استقباله، مثل: سوريا.. ولم يجد سوى اليمن ليستقر بها، ولكن بعد عودة العلاقات بين فرنسا واليمن.. وبين اليمن وألمانيا، حدث اتفاق بين تلك الدول للقبض على اليد اليمنى لكارلوس، وبالفعل بدأت السلطات اليمنية فى مراقبة فيزيتش وتصويره ورصد تحركاته؛ حتى إنها رفعت بصمات أصابعه من على مجموعة من الأكواب، التى كان يشرب فيها، وبالفعل سقطت اليد اليمنى لكارلوس فى اليمن، وتم تسليمه للسلطات الألمانية حيث إنه ألمانى الأصل.

اسمه «جوهانز فيزيتش الياس» من مواليد ٢١ يوليو ١٩٤٧ فى مدينة فرانكفورت الألمانية.. وقبل أن يتم عامه العشرين، وفى عام ١٩٦٧ بدأ مع صديقه «فيلفريد بوس» فى إنشاء خلايا ثورية تقوم بأعمال ضد المصالح الأمريكية فى ألمانيا الاتحادية.. تطورت هذه الخلايا الثورية بعد ذلك؛ لتصبح شبكة أطلق

عليها اسم النجدة الحمراء، تقوم بأعمال إرهابية لصالح عديد من دول العالم، وبصفة خاصة عدد من دول الشرق الأوسط.. ومن خلال هذه الأنشطة تعرف على «وديع حداد».

وصديقة فيزيتش والمقربة منه فى ذلك الحين، كانت «ماجدلينا كوب»، التى هجرت زوجها من أجل هذا الحبيب اليسارى، وكانت تزوره فى الخفاء فى مسكنه، الذى يعدّ مقر القيادة فى رقم ١٤٩ «فيتل سكوير ألى» بفرانكفورت.. وبعد عدة سنوات أصبح فيزيتش وصديقته ماجدلينا كوب اليد اليمنى للإرهابى كارلوس.. وكانت أول عملية مشتركة بين كارلوس وفيزتش تلك التى وجهت ضد طائرات شركة العال الإسرائيلية فى مطار أورلى فى باريس فى يناير ١٩٧٥.. وعندما ألقى القبض عليه بعدها بعدة أسابيع فى ألمانيا، يوم ٢٤ مارس لم يستمر طويلاً فى السجن، وخرج فى شهر نوفمبر لظروف صحية.. قيل: إنها نزيف فى الأمعاء.. ثم اختفى بعد ذلك، ويقال: إنه سافر إلى الشرق الأوسط؛ حيث التقى هناك بكارلوس.

أما عن صديقه «فيلفريد بوس»، ففى عام ١٩٦٧ قتله الموساد الإسرائيلى، وأصبح فيزيتش بعد ذلك المشرف والمدرس الوحيد والمدرب المتمكن للخلايا الثورية، ومعسكرات تدريب الإرهابيين، بل إنه أصبح الشريك الأول لكارلوس فى كل العمليات الإرهابية، وله حق التوقيع وصرف الأموال من مختلف البنوك، التى يتعامل معها كارلوس بين المجر وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية (سابقًا).

توطدت العلاقة بين كارلوس وفيزيتش، حتى إن يده اليمنى ـ كما كان يطلق عليه ـ أوصى كارلوس بحماية صديقته «ماجدالينا كوب» فى حالة موته أو القبض عليه.. وعمل فيزيتش لم يكن مقصوراً على عصابة كارلوس فقط.. فقد أصبح أيضًا رجل العلاقات العامة المفضل لديه، وضابط الاتصال الأول

بمجموعات الإرهاب الأوروبية، والذى ينظم عمليات نقل وتجارة الأسلحة والمتفجرات اللازمة للعمليات التخريبية!.. لقد كان «فيزيتش» كاتم أسرار كارلوس، والمطلع على كل خبايا العمليات الإرهابية التى تقوم عصابة كارلوس بتنفيذها. حتى إن كارلوس شخصيًّا طلب من مساعده الأول ويده اليمنى أن يكون على اتصال بالمخابرات السرية الألمانية الشرقية (ستاسى).. والذى كان يجهله كارلوس نفسه أن شريكه وزميله فيزيتش، ومنذ بداية تكوينه للخلايا الثورية، له ملف عند الستاسى خاص به ويحمل اسمًا حركيًّا هو «شنايدر»، ويعرف أيضًا باسم العميل الممتاز! ومن هنا كانت للمخابرات الألمانية الشرقية سابقًا نوع من أنواع السيطرة على مجموعات كارلوس الإرهابية، وتعلم بكل تفاصيل أعمالها!.. ووصل التعامل بين ستاسى ومجموعات كارلوس إلى العمل فى مجالات التجسس العسكرى، وبالفعل تسربت معلومات مهمة وسرية عديدة من المراكز النووية الفرنسية من خلال بعض العاملين بها!.. وفى مايو ١٩٨٠ فكر فيزيتش فى تنفيذ عمليات إرهابية جديدة، سافر إلى رومانيا ووقع عقدًا خاصًّا مقابل مبلغ ٤٠٠ ألف دولار؛ لتنفيذ عملية الهجوم يوم ٢١ فبراير من عام ١٩٨١، وتدمير محطة راديو أوروبا الحرة فى ميونيخ.. أيضًا عملية محاولة اغتيال المعارض السياسى الرومانى «بول جوما» فى باريس.. فى ذلك الوقت فكر فيزيتش فى خطة جديدة لكسب ٤ ملايين دولار، عن طريق قتل الرئيس الأمريكى الأسبق ريجان؛ لصالح إحدى دول الشرق الأوسط.. وقام بوضع الخطة لعرضها على المسئولين الذين تراجعوا فى آخر لحظة، وضاع على الإرهابيين مبلغ الأربعة ملايين دولار! كما خطط أيضًا لاغتيال الرئيس الراحل أنور السادات مقابل ثروة كبيرة. ولكن خطته أحبطت عقب اغتيال السادات فى حادث المنصة عام ١٩٨١، قبل أن يبدأوا فى تخطيط وتنفيذ العملية الدموية.

وهناك أكثر من عملية إرهابية تمت فى أوروبا، وتأكدت السلطات والمخابرات أنها من تخطيط وتنفيذ الإرهابى كارلوس ويده اليمنى فيزيتش. أهمها:

* انفجار قنبلة فى محطة سان شارل فى مارسيليا فى يوم ٢١ ديسمبر عام ١٩٨٣، وأدت إلى وفاة شخصين وإصابة ٣٤.

* تدمير البيت الفرنسى فى برلين الغربية فى ٢٥ أغسطس ١٩٨٢، وتسبب فى موت فرد وإصابة ٢٣.. هذا الهجوم اعترف به كارلوس فى رسالة، أرسلها لسفارة ألمانيا الاتحادية فى جدة.

* الهجوم على مقر راديو أوروبا الحرة فى ميونيخ فى ٢٠ يوليو ١٩٨١، وتسبب فى مصرع «واميل جورجوس» الرومانى الأصل.

* عمليتان ضد شركة طيران العال الإسرائيلية فى ١٣ و ١٩ يناير ١٩٧٥ فى مطار أورلى الفرنسى.. العملية الأولى فشلت، فأعادوا المحاولة بعد مرور ٦ أيام فقط، واستطاعوا تحقيق هدفهم، وخطفوا طائرة بركابها كرهائن.

* محاولة الهجوم على مبنى الكابيتول (الكونجرس الأمريكى) فى مارس ١٩٨٢.

وحتى بعد سقوط الرؤوس الكبيرة فى عصابة كارلوس الإرهابية.. فإنه لايزال هناك عديد من أفراد هذه العصابة، تعيش بحرية ولم تسقط بين يدى العدالة.. أفردا غاية فى الخطورة، لهم أسماء حركية ووجوههم غير معروفة.. من بين هؤلاء:

* أبو حكم.. المدير المالى للعصابة، واسمه «إلياس على» من مواليد حمص بسوريا عام ١٩٤٢، ويحمل جواز سفر عراقيّا رقم (١٧٠٠٩)، مطلوب القبض عليه لتورطه فى أكثر من عملية إرهابية، أهمها: عملية البيت الفرنسى، وعملية شارع ماربوف فى فرنسا يوم ٢٢ إبريل ١٩٨٢.. هذا الرجل يعرف تفصيلاً أين توجد ثروات وأموال كارلوس، التى جمعها من خلال تجارته بالإرهاب.. وبالإضافة إلى خبرته فى الحسابات والأرقام، فهو متخصص وخبير فى القتل والاغتيال. وحتى الآن لا تعرف السلطات ولا المخابرات أين يعيش وكيف يختبئ؟!

* على فرحات.. القناص المحترف: يبلغ من العمر ٣٦ عامًا، ويحمل جواز سفر لبنانيا رقم (٢٤٥٥٣٢)، ويعدّ القناص المحترف والرجل الخطير فى مجموعة كارلوس الإرهابية، فقد كان معه فى السودان أثناء إلقاء القبض عليه.. ولكنه هرب بأسلوبه الفريد فى التخفى.. ويقال: إنه يعيش فى مناطق بعيدة عن العمران، ربما فى أحضان جبال لبنان أو الأردن!

* محمد أمير.. موجود فى بيروت: من أصل لبنانى، وهو عضو بالحزب الاشتراكى القومى السورى، ويعمل فى أكثر من عصابة إرهاب، ومتورط فى عدة عمليات إرهابية، ويقال: إنه يعيش الآن فى بيروت الغربية فى حى الشيعة.

* محمود نبيل.. الرجل شديد المكر: من أصل لبنانى أيضًا.. ويشبه زميله محمد أمير، فهو إرهابى كبير شارك فى أكثر من عملية لأكثر من عصابة، ولكنه يختلف عن زميله السابق فى أنه أكثر سرعة ومكرًا، وهو يسافر دائمًا بين الأردن وسوريا ولبنان، ولا ينام أبدا ليلتين متتاليتين فى بلدة واحدة.

*** الوجه الآخر:**

السجون مليئة بالنوايا «الطيبة»، وأشهرهم فى هذه الأيام كارلوس، الذى اعتاد ركوب الدرجة الأولى فى قطار العقائد المتطرفة، وحركات الرفض اليسارية الثورية على أنواعها، طوال ٢٠ سنة أمضاها ثعلبًا يكر ويفر، ملتصقًا دائمًا بمن يخفيه ويحميه من ملاحقات دول أوروبية عدة، ممن أشبعها قنابل وتفجيرات، وقذائف مميزة من بعيد، تركت فى رقبته حوالى ٨٥ قتيلاً من جنسيات متعددة، معظمهم قضى بريئًا بعمليات مسلحة دولية خاطفة، نفذها الثعلب «الشاقال» بأعصاب باردة فى مثلث باريس، لندن وفيينا بشكل خاص، وبأساليب أوجعت الأوروبيين، والفرنسيين بالذات، فبدأوا بجمع المعلومات عنه كقاتل بالجملة مأجور، بل إرهابى دولى يلبس قناع الثورة الدولية المسلحة، وأحيانًا قضية الفلسطينيين، ليزعزع الاستقرار الأمنى فى أوروبا الغربية؛ حتى أصبح أسطورة

رومانسية، شيطنتها الأفلام والروايات والقصص عن شاب فى مقتبل العمر، ترك عائلة ثرية نشأ فيها، ليتجول كالأشباح باسم كارلوس مارتنيز، زارعًا القنابل هنا وهناك؛ لدرجة أصبح الناس معها يرونه فى كل مكان، لم يتواجد فيه حقيقة، كتجار بريطانيين أكدوا للشرطة مرة أنهم شاهدوه فى إحده البارات مع صبية فاتنة الجمال، وعامل بلجيكى فى محطة وقود، أقسم أنه ملأ خزان سيارته بالبنزين، وامرأة شاركته القطار نفسه من ميونيخ إلى فرانكفورت بألمانيا، وأخرى جاورت مقعده فى صالة سينما بباريس، إلى أن تمكن منه الفرنسيون فى السودان، وأوقعوه فى الفخ، ثم أنزلوه «ضيفًا» فى زنزانة انفرادية بسجن «الاسانتيه»، ونقلوه بعدها إلى انفرادية أخرى بسجن «فريسين» بضاحية من باريس، حتى حانت محاكمته فى ٩٧/١٢/١٢ عن جريمة واحدة فقط، اختارها الادعاء الفرنسى ضده، وصنفتها ٨ مرافعات قضائية، واستمرت ٩ أيام فى خانة القتل العمد مع سبق الإصرار والتصميم، وهو ما رفض أن يؤكده أو ينفيه، جاعلاً من المحاكمة فرصة تحدث فيها عن نفسه كثورى عقائدى محترف، وسط وقائع ومعلومات قدمها الادعاء العام، عكست صورة مختلفة تمامًا، وجاءت بحكم بدهى طبعًا: كارلوس سيمضى بقية حياته فى السجن، كإرهابى دولى مأجور، ولن يغادره إلا جثة هامدة بالتأكيد..

ولكن.. ولكن لا شىء أكيد، فلدى الفرنسيين شكوك الآن، فى أنه أرسل بما يشبه الشيفرات إلى من يمكنهم القيام بعملية ما، من المتعاملين معه سابقًا، كخطف شخصية فرنسية مهمة مثلاً، أو اقتحام مركز اجتماع تتواجد فيه شخصيات بارزة فى دولة ما، واحتجازهم لمبادلتهم بحريته دون قيد أو شرط، لقوله للقاضى «ايف كورنيللو» خلال الجلسة السادسة من المحاكمة: «يجب أن تحترمنى وتعرف من أنا، كارلوس مات وانتهى، ولن يترك فرنسا حيًا، إلا بعملية مفاجئة لتبادل الرهائن». وفوجئ من القاعة بالتصريح، وعدّوه هذيان اليائس. لكن «الشيفرة» لم تفاجئ المطلعين على أرشيفه الضخم فى دائرة مكافحة الإرهاب والتجسس الفرنسية! ممن سعوا فى الشهرين السابقين على المحاكمة إلى

الاطلاع على مئات الوثائق لدى مخابرات: رومانيا، هنغاريا، جمهورية التشيك، وبقايا الأرشيف اليوغوسلافى القديم، كما لدى دول فى الشرق الأوسط كان له ارتباطات مع بعض المسئولين فى أجهزتها الأمنية، أو صانعى القرارات العليا فيها، فالعبارة التى لفظها «توحى بتناقض غريب بين الجرأة المتحدية واليأس من نتائج محاكمة يعرفها مسبقًا» طبقًا لما ذكرته مجلة «لوبوان» الفرنسية؛ مما يؤكد أن كلمة «ندم» لا توجد فى قاموس «الشاقال» بل الانتقام.

أوحى كارلوس أيضًا بالتحفظ طوال مدة المحاكمة، فخرج المحلفون بعدها، وليس لديهم أى جديد منه «كأنه تحفظ على المعلومات، التى بحوزته عمن يعتقد أنهم قد يساعدونه مستقبلاً».

وبعث كارلوس أيضًا بصورة ملونة له فى سجن «فريسين» إلى والده المحامى المتقاعد الآن، «آلتا غراشا سانشيز» (٧٠ سنة) المقيم حاليّا فى مدينة «سان كريستوبال» عاصمة ولاية «تاتيرا» الفنزويلية، وهى الولاية التى تنتهى عندها أطراف جبال الإنديز، على الحدود مع كولومبيا، وكتب عليها: «إلى العجوز العزيز، من رفيقك القديم.. «ايليتش» وهو ما فهمه الفرنسيون على أنه قد يكون «شفيرة مالية» أو شيئًا من هذا القبيل؛ لأن أحدًا لا يصف والده بالعجوز العزيز كتابة، وهو تعبير يستخدمه الأمريكيون اللاتينيون شفويًّا عن آبائهم وأجدادهم، ويرون فيه احتقارًا، إذا ما تم استخدامه كتابة إليهم، طبقًا لما ذكره صحافى فنزويلى، ضمن الكثير الذى ذكره عن شخصية كارلوس وماضيه فى فنزويلا، التى عانى فيها من طفولة متوترة شهدت خلافات يومية حادة بين الأم والأب، انتهت بالطلاق بينهما فى أواسط الستينيات، حين غادرت الأم (آلبا سانشيز) إلى لندن؛ حيث كان لها بعض الأقرباء، ومعها أبناؤها الثلاثة: ايليتش (كارلوس) فلاديمير ولينين، لتعيش حياة بائسة فى العاصمة البريطانية، وهناك تلقى كارلوس دروسه الابتدائية، متنقلاً بين ٣ مدارس فى سنتين، فقد طردته إحداها، ولم تعجبه الثانية. إلا أنه كان تلميذًا مجدّا ذا ذاكرة من حديد..

«آلتا جراسا»، الأب، واسمه يعنى بالعربية «النعمة العليا» عاتب على العرب وصحافتهم على ما يبدو «فقد وهب كارلوس ٢٠ سنة من حياته للقضية الفلسطينية» على حد تعبيره، فى مقابلة أعدتها معه محطة تلفزيون «رويترز» فى منزله بسان كرستوبال، قبل شهر من المحاكمة، حيث قاطعه صياح الديكة ونقيق الدجاج الجوال قربه مرات عدة، خصوصًا عندما قال: «أنا فخور بكارلوس، فقد كان ثوريًّا دوليًّا، ولم يكن إرهابيًّا أبدًا. هنا فى البيت قرأ مؤلفات تروتسكى واستوعبها، وهو فى الحادية عشرة من عمره، وكان جادًا فى دراسته، ويبدو أنه استمد ميوله الثورية من بيتنا الذى عاش فيه طفولته.. كان البيت ـ وما يزال ـ ماركسيًّا لينينيًّا مخلصًا».. إلا أن «النعمة العليا» لا يدرى على ما يبدو أن الماركسية، لينينية وغيرها، ماتت قبل ٧ سنوات، ولم تترك إرثًا سوى ما نراه اليوم من بلاد جائعة ومكتظة بمافيات تسرح فيها كغيوم الجراد.

هل وهب إيليتش راميريز سانشيز، أو الثعلب «الشاقال» كما سماه البريطانيون، عشرين سنة من حياته للقضية الفلسطينية حقًّا؟.. زوجته الأولى، الألمانية مجدالينا كوب (١٩٥٢) تجيب بما لا يدع مجالاً للشك بأن كارلوس اتخذ من الإرهاب مهنة ليعيش حياة، لا يمكن أن توفرها له مهنة إخرى على الإطلاق، ففى نوفمبر ١٩٩٧ ذكرت كوب لصحيفة «أوجلوبو» البرازيلية، وهى الرابعة فى العالم بسعة الانتشار، أنها تتمنى «أن تموت أسطورة كارلوس إلى الأبد، فهى مزيفة، كان يدهشنى للسهولة التى يقتل بها الناس. لقد زرع القنابل فى كل فرنسا؛ ليحررنى من السجن الذى أمضيت فيه ثلاث سنوات هناك، وهى قضية شخصية ولا علاقة لها بثورة أو عقيدة على الإطلاق».

وقالت مجدالينا، وهى ابنة موظف بريد متقاعد الآن، ومن مدينة «توى اولم»، التى تعيش فيها حاليّا مع ابنتها الوحيدة من كارلوس، البيتا روزا (١٩٨٦) أنها تعرفت إليه أول مرة فى بداية ١٩٧٩ بصالون فندق برلين شتات (فى برلين الشرقية سابقا)، وأن «جوهانس هاينريخ» الذى كان الرجل الثانى فى منظمة العمل الأحمر، الألمانية السرية، هو الذى قدمه إليها. وكان هاينريخ

عشيقًا حميمًا فى ذلك الوقت لمجدالينا، «بل كان السبب فى انفصالها عن زوجها الأول فى ١٩٧٥، حين تعرف إليها مبديًا إعجابه بجمالها وحيويتها من أول لحظة»؛ طبقًا لما ذكرته «اوجلوبو» مضيفة أنها كانت أمًا لطفلة عمرها ٥ سنوات فى ذلك الوقت، هى ابنتها البكر من زوجها الأول، الذى تخلت عنه وعنها فجأة لتعيش مع هاينريخ، وتنضم إلى منظمة العمل الأحمر السرية»؛ حيث بدأت عملى كمسئولة عن إعداد الوثائق المزورة، التى كانت المخابرات الرومانية تزودنا بصفحاتها بيضاء خالية من أى شىء، لنستخدمها فى احتياجات المنظمة».

واعترفت مجدالينا فى حديثها مع «أوجلوبو» عبر الهاتف بأنها خانت جوهانس هاينريخ بعد ٧ أشهر تقريبًا من معرفتها لصديقه الحميم كارلوس «الذى خانه معى بدوره.. لقد غدرنا به معًا، ففى منتصف ١٩٧٩ كانت مجموعتنا تعمل وتتحرك من بودابست، وكنت أنا هناك معهم. وذات يوم طرق كارلوس باب الشقة، التى كنت اعيش فيها مع جوهانس، الذى كان خارج المجر فى رحلة عمل تتعلق بالمجموعة، وكان الوقت صيفًا جميلاً، والمساء فى بدايته، ورأيته عند الباب بأجمل الثياب، وفى فمه سيجار على طريقة تشى غيفارا وفيدل كاسترو، ممسكًا بيديه زجاجتى نبيذ فرنسى معتق، وكان ما كان».. عاد هاينريخ من سفره بعد أيام، ليجد أن صديقه الحميم فى العقيدة والحياة اليومية، قد استولى على المرأة الوحيدة التى أحبها فى حياته؛ «فاحترم الوضع الجديد، ولكنه ظل حاقدًا على كارلوس».

وأوضحت مجدالينا جانبًا آخر من شخصية الشاب «الذى استعبدته النزعات، وأضحى أسير الإدمان على مباهج الحياة ومظاهرها» فقالت: إنهما تزوجا فى دمشق فى أواخر ١٩٧٩ «وكانت حفلة حضرها كثيرون، وزعنا الشمبانيا الفرنسية والويسكى الأسكوتلندى والكافيار الروسى الفاخر على الجميع، وشعرت أنا بالخجل، لأننا كنا مزيفين، كمعظم الذين حضروا، إذ لم تكن هناك ثورات ولا عقائد، بل أفواه تجتر وتشرب وتنفث السيجار». وتتابع: «كان مزيفًا، فقد كرر على مسامعى عشرات المرات عندما كنا فى دمشق، التى عشنا فيها ٩

سنوات على مراحل، من أنه تخلى عن الجاه وعن ثروة عائلته الغنية فى فنزويلا، ليهب حياته ثائرًا مع الثوار، وليتفرغ للقضية الفلسطينية والثورة الدولية، إلا أننى تعرفت إلى عائلته فى فنزويلا التى زرتها قبل افتراقنا نهائيًّا فى ١٩٩١ بعام، ولم أجد سوى عائلة بائسة، تحتاج إلى الكثير لتصل إلى ما كان يصفه لى من وضعها المالى الجيد».

وكان كارلوس قد ترك مجدالينا، عندما اكتشفت الصحافة الألمانية فى ١٩٩١ موقع إقامتهما فى دمشق «فى حى راق جميل»، فيه أيضًا تعرف إلى طبيبة أسنان أردنية تقيم فى العاصمة السورية، وتصغره بـ ١٦ سنة تقريبًا، وكان يدعوها «لينا»، وهو اسم مستعار على ما يبدو.

ولم يجد كارلوس دولة فى الشرق الأوسط ترضى بتواجده على أراضيها، عندما قرر مغادرة دمشق بصحبة «لينا» بناءً على ما طلبه منه السوريون بضرورة مغادرة البلاد؛ فقد أصبح بضاعة فاسدة، وعفى عليها الزمن، خصوصًا بعد انتهاء الحرب الباردة، ونتائج حرب الخليج التى كان يأسف لها، طبقًا لما ذكرته «لوبوان» الفرنسية، فقد كان يحلم بالعيش فى العراق، ولم ير أمامه إلا السودان فى ما بعد ليقبله، فغادر إليه مقيمًا بادئ الأمر فى فندق «هيلتون» بالخرطوم، ثم استأجر شقة كبيرة فى جادة إفريقيا فى شارع ٣٥ القريب من المطار، «ربما احتياطًا من ساعة غفلة يضطر معها إلى الهرب بطائرة، إذا طرأ ما يهدده». . كما ذكرت مجلة «شتيرن» الألمانية، فى مقابلة أعدتها مع مجدالينا كوب، فى بيتها البسيط الذى تعيش فيه الآن مع ابنتها «البيتا» فى حى للطبقة الوسطى بمدينة صغيرة بجنوب ألمانيا، وبراتب شهرى يأتيها من المساعدات الاجتماعية الحكومية».

قالت مجدالينا لمجلة «شتيرن» أيضًا بأن الثورة العالمية هى آخر ما كان يفكر فيه كارلوس؛ «فقد كان مجنونًا بالملذات، ولا يفكر إلا فى مصالحه الخاصة. لقد تسلم ملايين الدولارات من دولة عربية؛ ليقوم بعمليات تغذى الأسطورة عنه،

وتزيد من سهولة حصوله على المال فى ما بعد. هذه كانت مهنة، كأى مهنة أخرى».

ولكنها اعترفت أنه كان يغزو القلوب بسرعة «وقد رحلت معه فى أوروبا الشرقية والشرق الأوسط؛ لأن المنطقتين كانتا بالنسبة لنا جنات حماية، فيها كنا نختفى، ومنها كان ينطلق للقيام بما كان يساعد على تطوير أسطورته». . ولا تعرف مجدالينا الشىء الكثير عن حياة كارلوس فى السودان «لقد غادر إلى الخرطوم فى ١٩٩٤، حين لم يعد بالإمكان البقاء فى سورية. وكنا افترقنا فى منتصف ذلك العام، فغادر إلى الخرطوم مع الطبيبة الأردنية (لينا)» وغادرت مجدالينا إلى فنزويلا مع ابنتها (البيتا روزا) فترة من الوقت، ثم عادت بعدها إلى ألمانيا، وسلمت نفسها لشرطتها المحلية، دون أية توابع، وضمن اتفاق مسبق على ما يبدو، ملخصه الندم على الماضى، واستخلاص العبر منه، وتلقينها مستقبلاً لابنتها.

*** النساء من حوله:**

* * «لم تكن حياة كارلوس مجرد أعمال ثورية كما يدعى أو إرهابية كما يقول العالم، وإنما كان يتخللها أوقات ينعم فيها بالراحة، وينهل فيها من متع الدنيا وخاصة النساء. وعندما نفتح ملفات كارلوس السرية، التى تتناول حياته الخاصة نكتشف أنه زير نساء. والمرأة عند كارلوس أداة للجنس، وأداة مساعدة فى تنفيذ الإرهاب، ولم يتخل كارلوس عن حبه المجنون للنساء؛ حتى أثناء إقامته فى الدول الشيوعية فى الفترة ما بين الأعوام ١٩٧٦ و ١٩٨٨.

هناك فى هذه الدول كان يعشق نوعية خاصة من النساء؛ بائعات الهوى والفتيات الصغيرات، كما قال رئيس البوليس السرى فى بودابست؛ «إنه رجل خطير ومجنون، يعشق الفتيات الصغيرة وبائعات الهوى، وأكثر من مرة وجدناه غريقًا فى الوسكى وفى حالة شديدة من السكر تقترب من غيبوبة الموت!».

لقد بدأ رحلته نحو شرق أوروبا مع نهاية عام ١٩٧٥، عقب عملية اختطاف

وزراء البترول إلى الجزائر؛ حيث اختفى هناك، ثم ظهر بعد ذلك فى رومانيا فى بادئ الأمر، بجواز سفر تونسى. وفى بوخارست العاصمة بدأ يرتاد النادى الدبلوماسى ليلتقى ببنات السفراء صغيرات السن، وكان شاوشيسكو فى ذلك الحين قد خصص له فيلا راقية تقع على شاطئ البحر الأسود.

ثم ظهر بعد ذلك فى المجر، ثم فى ألمانيا الشرقية، حيث كانت تحركاته فى هذه الدول الشيوعية يرصدها البوليس السرى الألمانى المعروف باسم «ستاس»، وأقام كارلوس فى فندق ميتروبول، وكان يستقبل فى غرفته الخاصة بالفندق عديدًا من بائعات الهوى والغانيات، ويطلبهن عن طريق التليفون، حتى وصل الأمر إلى أن معظم بائعات الهوى اللاتى كن يصلن إليه فى غرفته بالفندق، كان يرسلهن البوليس السرى هناك!.. وفى براغ يوم ١٠ يونيو من عام ١٩٨٦ دخل كارلوس تشيكوسلوفاكيا بجواز سفر سورى مزور، وتكررت مغامراته النسائية نفسها فى هذه الدولة، التى عانت من علاقاته بالنساء، وإقباله بنهم على الخمر!

فى عام ١٩٧٧ عندما أعلن المكتب الفيدرالى للبوليس القضائى فى «فيسبادن»، وبخمس لغات، قائمة أسماء الإرهابيين الدوليين، المشكوك فى أمرهم، وأنهم عملاء لكارلوس، جاء بها أسماء عدد من النساء من مختلف البلدان التى عاش فيها! وكما يؤكد المؤرخ الفرنسى، رولاند جاكار، الذى تخصص فى كتابة تاريخ الإرهاب أن «كارلوس» استخدم عديدًا من النساء كأداة منفذة لعمليات الإرهاب وعشيقات له فى الوقت نفسه، إذ من خلالهن يستطيع الإقامة والاختفاء بسهولة؛ فالمرأة دائمًا هى صاحبة المكان أو الشقة التى يختبئ فيها، سواء فى لندن أو باريس.

وهناك نوعية أخرى من النساء كانت فى حياة كارلوس.. نوعية إرهابية احترفت التدمير، يلقى بها فى النار، ثم تعود إليه سالمة مرة أخرى، هذه النوعية من النساء الإرهابيات كان أفضلها المرأة الألمانية، والتى أعجب بها كارلوس

لبراعتها فى تنفيذ الأوامر. فى عام ١٩٧٤ كانت «امبارو سيلفا مازميللا» من كولومبيا ٢٣ سنة تعيش فى فرنسا، تعمل خادمة فى الصباح وبعد الظهر تدرس العلوم السياسية. وذات مساء وأثناء تناول وجبة العشاء مع صديقات من إسبانيا فى أحد المطاعم الفرنسية، تعرفت على هذا الشاب الأسمر الجذاب، الذى استطاع أن يستغلها فيما بعد كعشيقة ومساعدة له لإخفاء أدواته؛ فقد كانت «مازميللا» أثناء سفر كارلوس خارج فرنسا، تخفى مجموعة من حقائبه الخاصة فى منزل مخدومتها ودون علم صاحبة الشقة.. وبعد أن تركت الخدمة فى المنازل، وعملت بائعة لدى جواهرجى، كان كارلوس يدفعها إلى اقتراض المال من صاحب المحل.. ثم انتقلت للعمل فى بنك إنجليزى فى قلب العاصمة الفرنسية، وتحسنت أوضاعها المالية والاجتماعية، وظل كارلوس يستغلها ويستغل شقتها حتى يوليو من عام ١٩٧٥، عندما دلت التحريات بأنها على علاقة بكارلوس. وعند تفتيش مسكنها الجديد بالحى السابع، وجدت مجموعة من حقائب الأسلحة الخاصة بكارلوس، وقالت أثناء التحقيق معها: «لم أكن أعلم أنه كارلوس الإرهابى، ولا أعلم شيئًا عن محتويات هذه الحقائب، لقد كانت أمانة عندى من صديق عزيز!!».

كان كارلوس غاية فى الذكاء والحرص، يختار كل ضحية له بعد بحث وتحريات، وفى معظم الأحيان تكون الفتاة أو المرأة فوق مستوى الشبهات، مثل: «أنجيلا أرمسترونج» ـ ٢٩ سنة، سكرتيرة، تعمل فى فرنسا لأنها من جنوب إفريقيا، وكانت محدودة فى علاقاتها وليس لها أصدقاء أو معارف سوى «نانسى سانتشيه»، العشيقة الرسمية لكارلوس.. أكدت أنجيلا عندما ألقى القبض عليها، أنها لم تقابل «كارلوس» سوى ٣ مرات فقط.. وآخر مرة التقت به كانت فى أحد مكاتب الخطوط الفرنسية، وطلب منها توصيل خطابات لبعض الأصدقاء.. ومن هنا وقعت أنجيلا فى الفخ، وعدّت واحدة من معاونيه دون أن تعلم.

نوعية خاصة جدّا وساذجة من النساء، استطاع كارلوس أن يسخرهن لخدمة أغراضه الجنسية والإرهابية تمامًا، كما فعل مع «أنجيلا أوتاولا» الإسبانية الأصل ـ

ففى عام ١٩٧٤ تعرف عليها، وهى تعمل فى إحدى حانات لندن.. فتاة صغيرة لم تتعد بعد ٢٢ سنة، عرّفها أنه رجل أعمال واقتصادى كبير، وكثير السفرات والتنقل.. اهتم بها حتى وقعت فى غرامه، وبطبيعة الحال.. فإن هذه الفتاة الصغيرة لم تكن لتتأخر فى الحفاظ على مجموعة حقائب رجل الأعمال الكريم الذى تعشقه.. والطريقة نفسها استخدمها كارلوس مع عشيقته الرسمية «نانسى سانتشيه»، التى تعرف عليها فى عام ١٩٧٤ بمطعم فى الحى اللاتينى؛ لقد كانت طالبة ساذجة أخذت بحديثه الشائق وثقافته الواسعة فى مجال الفنون المسرحية، ودعته لزيارة شقتها الصغيرة التى تقيم بها فى حى «توبيه» الفرنسى، ولم تندهش عندما اكتشفت أنه يعرف مكان سكنها، بل الدور الذى تقيم فيه.

الأسلوب نفسه اتبعه فى لندن.. إنه لا يبحث عن الأحياء الراقية للاختباء فيها أو لإخفاء ترسانته من الأسلحة.. بل كما فعل مع الأخريات، استخدم «ماريا لديا روميرو» المحامية الكولومبية ٢٨ سنة، واستطاع أن يحول مكان إقامتها إلى مخبأ لأسلحته!.. وبالإضافة إلى هذه النوعية الساذجة من النساء، والتى استطاع كارلوس أن يجندهن لحسابه دون أن يشعرن، كانت هناك نوعية أخرى من النساء فى حياته من ذوات الطبيعة الإرهابية الإجرامية، تستطيع أن تمسك السلاح وتهاجم وتدمر.. وأشهر من كن فى هذه المجموعة، هى عشيقته «ماجدالينا كوب»، فتاة ألمانية من بافاريا، وتنتمى لعائلة كبيرة، ولكنها تتمتع بصفات دموية ثورية.. وقعت ماجدالينا فى غرام كارلوس، منذ أول لقاء فى فرانكفورت عند رئيس خلية الثوار، وانضمت فوراً إلى فريق العمل.. ودرج اسمها فى قائمة الإرهابيين الدوليين، عقب عملية الهجوم على الطائرة الإسرائيلية فى مطار «أورلى» الفرنسى، يوم ١٣ يوليو من عام ١٩٧٥، وألقى القبض عليها فى عام ١٩٨٢، وهدد وقتها كارلوس الحكومة الفرنسية بالانتقام، إذا لم يتم الإفراج عنها؛ إذ كانت هى الحب الحقيقى فى حياته!.. وفى عام ١٩٨٥ تم الإفراج عنها، ولحقت بكارلوس فى سوريا، وتزوجها، وأنجب منها طفلة تدعى «ايفيتا»، ولكن هذا الزواج لم يمنع كارلوس من إقامة علاقات نسائية أخرى فى كل بلد ذهب إليه.

أما «جابريللا وشر تيدمان» فهذه الفتاة لم تكن عشيقة له، بل منفذة جيدة لعملياته الإرهابية.. فقد اشتركت فى عام ١٩٧٥ فى عملية خطف وزراء بترول منظمة الأوبك إلى الجزائر، و«كريستينا مارجو» المرأة الجميلة الراقية التى تستطيع أن تجتاز كل الحدود بثقة شديدة، ودون خوف أو تردد.. هذه المرأة الألمانية، اشتركت فى عديد من العمليات الإرهابية، حتى تم القبض عليها يوم ١٨ يونيو عام ١٩٨٢ فى مطار روما، ومعها حقيبة من المتفجرات.. إنهن نساء فى حياة كارلوس، عرفهن أثناء إقامته فى الغرب.. بعضهن ساذج وبعضهن الآخر إرهابى. يعشن هذه الأيام بأسماء وشخصيات أخرى للهروب من ماضيهن!

ولكن ماذا عن زينب عشيقة كارلوس السودانية، والمرأة الوحيدة التى كانت معه خلال إقامته الأخيرة بالخرطوم.. اعترفت زينب المهدى، سيدة الأعمال السودانية بأنها عشيقة الإرهابى كارلوس، وقالت لصحيفة «صنداى تايمز» البريطانية: إنها تعرفت عليه باعتباره رجل أعمال لبنانيًّا، من أصل كوبى اسمه عبد الله. وأضافت أن ابنها ٢٥ سنة كان غير سعيد بعلاقتها بالأجنبى، الذى اعتادت الترحيب به فى محلها بالخرطوم، وأن اعتقال كارلوس وترحيله جاء بسبب ابنها الذى تبادل معه الضرب داخل المحل.. وقالت عشيقة كارلوس: «كنت أخرج معه مرة أو مرتين أسبوعيًا، وأتمنى أن يعرف كارلوس أننى مشتاقة إليه، وافتقده كثيرًا جدًّا!».

*** العاشق يحرق باريس:**

كان كارلوس «كريمًا» مع فرنسا بالذات فى عملياته، خصوصًا عندما اعتقل الفرنسيون زوجته مجدالينا، وأراد هو تحريرها على رؤوس الحراب، فبعد زواجهما فى دمشق، انتقلا مباشرة للعيش فى يوغوسلافيا السابقة بأواخر ١٩٦٩ ليقيما سنتين، ناشطين فى تحالفات مع عدد من الحركات المتطرفة اليسارية، عبر «الحركة الثورية الألمانية اليسارية»، التى أنشأها كارلوس بداية ١٩٨١ مع مجدالينا

وعشيقها السابق، الألمانى الشرقى آنذاك جوهانس هاينريخ، وكانت التحالفات متنوعة مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، كما أنشا كارلوس تحالفًا مع منظمة «بادر ماينهوف» الثورية الألمانية المتطرفة إلى جانب التعاون المشترك مع حركة الجيش الأحمر الثورى (يابانية)، ومع منظمات وحركات ناشئة فى أمريكا اللاتينية، بالإضافة طبعًا إلى تحالفه الشهير مع «أبو نضال»، المنشق السابق عن منظمة التحرير الفلسطينية آنذاك، ومع أجهزة الأمن فى العراق وسورية وليبيا بشكل خاص؛ «لتنفيذ ما ترغب به من عمليات فى الخارج، لقاء مبالغ طائلة»، حالمًا بذلك فى إنشاء «هولدينج إرهاب» عالمية كما يبدو.

إلا أن الفرنسيين أيقظوه من حلمه الكبير: فى ١٨ فبراير ١٩٨٢ أوقفت الشرطة الفرنسية مجداليا كوب وبرونو بريجيه، وهو رفيق لها فى «الحركة الثورية الألمانية اليسارية»، التى أنشأها كارلوس عاملة لحسابه الخاص، وهما قادمين من بودابست وبحوزتهما حقيبة مليئة بالمتفجرات، بالإضافة إلى قذيفتى بازوكا ومسدسين.. ومن المطار رأسًا إلى سجن انفرادى لكل منهما وتحقيقات. ثم تفاجأ السفارة الفرنسية فى بودابست برسالة، وضعها أحدهم فى صندوقها البريدى، وفيها يمهل كارلوس الحكومة الفرنسية شهرًا لإطلاق سراحها «وإلا فستحصدون النار فى باريس كلها»، وهو ما دفع بمحامى مجداليا، الفرنسى جاك فرجييه، إلى السفر مرات عدة إلى بودابست وبرلين الشرقية وبوخارست للاجتماع بكارلوس والوقوف منه على معلومات، قد تفيد قضيتها قبل انقضاء مدة الإنذار.

ولكن بلا جدوى، فالإنذار انتهى يوم ٢٩ مارس وأول الغيث كانت قطرة، قنبلة تنفجر فى قطار «كابيتول» بضواحى باريس (٥ قتلى و٢٧ جريحًا).. تمتعض المجر وتطرد كارلوس وجماعته إلى رومانيا، ومنها يتحول إلى لبنان، حيث الحرب اللبنانية الأهلية على أشدها، وفيه تهتز مكاتب وكالة الصحافة الفرنسية بانفجار كبير (بلا خسائر بشرية)، ثم يلقى موظفان فى السفارة الفرنسية مصرعهما اغتيالاً بالرصاص فى شقة يقيمان فيها معًا فى بيروت. وفى الطرف

الآخر من العالم، تتحطم مكاتب الخطوط الجوية الفرنسية فى فيينا بانفجار كبير، ويهز انفجار آخر مبنى السفارة الفرنسية فى المدينة، يتبعه انفجار عبوة عند مدخل البعثة التجارية فى العاصمة النمساوية.. ثلاثة أيام هادئة تمر، ويهتز شارع ماربوف فى قلب باريس بانفجار سيارة مفخخة، وعلى الطريقة اللبنانية (قتيل و٦٣ جريحا) والحكومة الفرنسية تعقد جلسة طارئة، يردد فيها أحد الوزراء ما كان الرئيس الفرنسى آنذاك، الراحل فرنسوا ميتران، قاله قبل أيام قليلة: «هذا العاشق الولهان سيكلف فرنسا الكثير، فالرجاء إيجاد حل سريع».. وكان الحل سريعًا، إلا أن أحدا لا يدرى تفاصيله، التى أدت بكارلوس إلى صمت استمر سنة و٣ أشهر. وتبدأ الجولة الرابعة فجأة بقذيفة بازوكا، تدمر معظم المركز الثقافى الفرنسى فى برلين الغربية يوم ٢٥ أغسطس ١٩٨٣ (قتيل و٢٣ جريحا).

ويصمت كارلوس مدة ٤ أشهر، ليفاجئ وزير الداخلية الفرنسى آنذاك، «جاستون ديفير»، بهدية مزدوجة لمناسبة ليلة رأس السنة. قنبلة تنفجر فى قطار مارسيليا ـ باريس، تتبعها أخرى فى محطة قطارات سان شارل فى العاصمة (٥ قتلى و٥٥ جريحاً)، وفرنسا تضغط على دول تأوى كارلوس، الذى كان قد أصبح خارج المنطقة العربية فى ذلك الوقت على أثر الغزو الإسرائيلى لبيروت فى يونيه ١٩٨٢، ويعتقد أنه كان فى رومانيا تحديدًا.. لا يرى كارلوس أمامه إلا الاستسلام للصبر المرير، وحتى ١٩٨٥ حين أطلق الفرنسيون سراح مجدالينا ورفيقها، وسط شائعات عن صفقة، يقال: إن حصة فرنسا منها كانت معلومات زاخرة بالأسرار عن كثير من أجهزة المخابرات الشيوعية فى أوروبا الشرقية ذلك الوقت، وعن بعض من يتعاملون معها من الفرنسيين، وهو ما يفسر اعتقال ٣ جواسيس فرنسيين؛ ممن كانوا يعملون لحساب رومانيا، روسيا والمجر بشكل خاص، قبل أشهر قليلة من مغادرة مجدالينا السجن.

وكان من بين المعلومات الزاخرة ما أساء للثورة الفلسطينية أيضًا، وهى القضية التى لبس قناعها ٢٠ سنة، دون القيام ولو بعملية واحدة تحقق لها بعض الأهداف، فمحاولة اغتياله فى ١٩٧٣ لصاحب محلات «ماركس آند سبنسر»

البريطانية، اليهودى «جوزف سييف»، فشلت، فقد أطلق عليه النار فى وجهه، وأصابه برصاصة واحدة فقط، ظل بعدها حيًّا. وفى أوائل ١٩٧٥ أطلق قذيفتى بازوكا على طائرة بوينغ تابعة لشركة «العال» الإسرائيلية، وهى جاثمة على مدرج مطار أورلى، وكانت النتيجة أسوأ؛ فقد أخطأها وأصاب بدلاً منها طائرة بوينج يوغوسلافية، مشعلاً فيها النار.. ويرصع كارلوس سجله بما أطلق شهرته العالمية، كمنفذ عمليات خاطفة بنتائج سريعة «لمصلحة القضية الفلسطينية» كعملية فيينا فى ديسمبر ١٩٧٥؛ حين اقتحم مع رفيقين له من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (وسط شكوك كثيرة حامت حوله فى البداية، لدرجة أن بعض الفلسطينيين تساءل فى المخيم «عما يفعله فنزويلى بيننا، ففى أمريكا اللاتينية كثير من الحركات الثورية.. فلماذا أرسلوه؟» ثم اطمأنوا إليه ولقبوه «خليل»، وترجموه له بالإسبانية، وأفهموه أنه يعنى «الصديق المخلص»)، مقر منظمة «اوبك» لقاء مبلغ من المال، قيل: إنه مليار، وقيل: ٢٠٠ مليون دولار، جزء يسير منه ذهب للجبهة الشعبية، والباقى أنفقه كارلوس فى الفنادق الفخمة وعلى الثياب الفاخرة والعطور، وبعضه استقر فى فنزويلا، أو تم إيداعه فى حسابات مصرفية يملكها، فى قبرص وتشيكوسلوفاكيا آنذاك، حتى فى لندن وسويسرا؛ حيث كانت تربطه علاقة وثيقة بالمصرفى السويسرى «فرنسوا جونو»، الذى انتحر فى ١٩٩٦ بعدما حقق معه أحد القضاة الفرنسيين بمسائل لها علاقة بأموال كارلوس؛ «مما يؤكد ما تطرق إليه المحلفون فى المحاكمة الأخيرة فى باريس عن ثروته المالية، التى يبالغ بعضٌ، ويقول بأنها تزيد عن ١٠٠ مليون دولار، فى حين يؤكد المطلعون بأنها ما بين ٥ و١٥ مليون دولار على الأكثر».

وفى سجل كارلوس الحافل «عملية» محاطة بالغموض إلى الآن، سمّاها الفرنسيون «ملف معركة توللبير»، وهى الجريمة التى نفذها يوم ٢٧ يونيو ١٩٧٥ فى شقته الصغيرة، التى كان يسكن فيها، وكانت تقع فى الطابق الخامس من مبنى قديم بشارع توللبير القريب من حديقة «لوكسمبورج» فى الحى اللاتينى من العاصمة الفرنسية.. وجريمة شارع توللبير هى الوحيدة التى اختارها القضاء الفرنسى فى ديسمبر ١٩٩٧ ليحاكم عنها كارلوس.

وفى التفاصيل أن كارلوس شاهد ٣ رجال أمن فرنسيين، يرافقهم صديقه الحميم، اللبنانى المتعاطف مع القضية الفلسطينية «ميشال مغربل»، يصعدون إلى شقته فصعد وراءهم، وهم كانوا عزلاً من السلاح، فى حين كان هو مزودًا بمسدس أوتوماتيكى روسى، من نوع «توكاريف»، وواجههم عند الباب بطلقات نارية سريعة، إحداها أصابت مغربل بين عينيه وخرجت من مؤخرة رأسه، فكان أول من خرّ صريعًا منهم، ثم بدأ بإطلاق النار على الثلاثة الباقين، فقتل «ريمون دوس» و«جان دوناتينى»، على حين بقى الثالث حيًّا، سوى من جروح بسيطة. ثم قفز إلى مبنى مجاور، ونزل الدرج بهدوء إلى شارع خلفى باتجاه حديقة لوكسمبورج، ومنها تاه عن الشرطة، ليغادر العاصمة الفرنسية متخفيًا إلى ألمانيا الشرقية.. وأصدر الفرنسيون مذكرة توقيف دولية بحق كارلوس بعد الجريمة، وهى المذكرة التى وضعته على كل شفة ولسان فى أجهزة الأمن الأوروبية، ثم تمت محاكمته غيابيًّا فى ١٩٩٢، وصدر حكم بالمؤبد ضده. لكن ظهوره ثانية على الأرض الفرنسية (بعد اختطافه من السودان فى ١٩٩٤) أتاح له محاكمة جديدة، كما يقضى القانون الفرنسى، وانتهت بتجديد المؤبد، وسط استغراب محاميه، «أوليفييه مودرو»، الذى تساءل عن كيفية الحكم على شخص ما بالسجن المؤبد مدى الحياة اعتمادًا على إثبات واحد ضده، هو عبارة عن نسخة فوتوجرافية لرسالة، قيل: إنها كانت بخط يده، وفيها كتب أنه سيرسل باللبنانى «مغربل»، إلى عالم أفضل «لأنه خاننى»..

لكن الادعاء الفرنسى أعاد إلى الأذهان كيف تباهى كارلوس بالجريمة فى خطابات، وأرسلها إلى عدد من أصدقائه، بالإضافة إلى اعترافه بارتكابها فى مقابلة فى العراق عام ١٩٧٩ مع مجلة لبنانية، كما أتى على ذكرها فى حديث هاتفى مع أحد أصدقائه، والذى نشرها فى ما بعد فى كتاب أصدره عنه، وكان قد تطرق إلى الموضوع أيضًا مع عدد من وزراء النفط العرب، الذين اختطفهم فى فيينا فى وقت لاحق، كأسلوب اتبعه لإخافتهم.

وكان مغربل صديقًا حميمًا لكارلوس فى باريس، التى كان يقيم فيها كمندوب لجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، إلى جانب أنه كان من المؤيدين الكبار للقضية الفلسطينية، وناشطا حقيقيّا لخدمتها. وقال كارلوس فى المحكمة ردًّا على سؤال، وجهه أحد محاميى الادعاء العام، فى محاولة لمعرفة كيف توصل رجال الأمن الفرنسيون؛ لمعرفة حقيقة مغربل فى باريس، لأنهم كانوا قد اعتقلوه قبل أيام من إقدام كارلوس على اغتياله، فأجاب الأخير: «أعتقد أن الموساد الإسرائيلى هو الذى كشف حقيقة مغربل للشرطة الفرنسية».. وهناك تفسيرات لـ «خيانة» مغربل لكارلوس، لا تصب فى مصلحة الأخير، بل تثير كثيرًا من الشكوك، فقد اعتقل الفرنسيون ميشال مغربل؛ للتحقيق معه فى نشاطاته بباريس، ثم طلبوا منه أن يدلهم على عنوان كارلوس فوافق بسهولة، وذهب مع رجال الأمن الثلاثة ليرشدهم بنفسه، ولعل حديثًا كان سيتم هناك، يكون شريكًا فيه، وإلا لما كانت هناك ضرورة لأن يرافقهم بنفسه إلى الشقة التى كان كارلوس يقيم فيها. كما أن زيارتهم لم تكن طبقًا لتكليف رسمى، بالإضافة إلى أن كارلوس كان شديد التحفظ على ذكر كثير من المعلومات، التى كان يمكن أن تفيد قضيته خلال المحاكمة الأخيرة، إلا أنه لم يتطرق إليها؛ لأنها تكشف حقائق أخرى لا يريد كشفها.

*** بين «زينة» و«زينب»:**

كان يحلم بأن يكون عام ١٩٩٤ عامًا للحرية بالنسبة له فى ليلة الاحتفال بالعام الجديد.. تناول كارلوس العشاء مع صديقه «توفيق»، وشابة سودانية حسناء عميلة فى المخابرات السودانية.. فى ذلك اليوم كان يريد الاحتفال بحياته الجديدة وباسمه الجديد «عبد الله بركات» رجل الأعمال اللبنانى. ولكنه لم يكن يتصور أنه مراقب من قبل المخابرات المصرية والمخابرات الفرنسية.. وجاء العام وجاءت معه لحظة تصفية الحسابات، ودفع فاتورة السداد التى ارتفعت إلى أربع وثمانين ضحية.

تحت ظلال النخيل جلس «جمال».. كان اليوم آخر أيام ١٩٩٣، ليلة العام الجديد ليبيع لفافات التبغ للمارة من الأثرياء. وقف مثل كل ليلة فى الحديقة العامة التى تقع بالقرب من شاطئ النيل؛ ليكون فى الوقت نفسه على بعد ٥٠ مترًا، من النادى اليونانى. وقف جمال يرقب باب ذلك المطعم الخاص، الذى انفتح فجأة لتخرج امرأة وخمسة رجال كلهم من البيض. واحد فيهم قوى البنية فى الأربعين من العمر، متوسط الطول يمسك بزجاجة خمر. سار الرجل فى الشارع وهو يترنح، ثم أخرج مسدسًا «مانيوم عيار ٤٤»، وأخذ يطلق الرصاصات فى الهواء، وهو يقول بصوت عال: «عام سعيد»، وردت عليه الشابة الشقراء بالإنجليزية: «حياتى.. أنت مجنون!».. الحارس الخاص الذى كان يتبعه كان مزودًا برشاش «عوزى» إسرائيلى الصنع. شرب «كارلوس» فى هذا اليوم حتى الثمالة، بعد أن قرر أن يكون اسمه مع هذا العام الجديد «عبد الله بركات».

لم يكن كارلوس مضطرًا بعد اليوم للاختفاء والهرب، بعد أن قرر أن ينتحل شخصية رجل أعمال فى الخرطوم، الرجل نفسه كان يسمى نفسه فى دمشق «ميشيل عساف»، وفى باريس «فكتور ديبون»، وفى برلين «جلين جيرهارد»، ولكن لقبه الدائم ظل هو «كارلوس.. أو شاكال».

وعندما سقط حائط برلين، وبدأ الحكم السوفييتى يتفتت، أدرك كارلوس أن دول أوروبا الشرقية لن تقف إلى جواره؛ فلجأ إلى سوريا حيث وجد الحماية. ولكن وبعد عدة سنوات، تغيرت الأحداث وتبدلت المواقف ومع نشوب حرب الخليج وتحالف سوريا مع الولايات المتحدة، وبصحبة زوجته الألمانية «ماجدالينا» ـ التى كانت عضوًا نشطًا بالخلايا الثورية ـ وابنته «ألبيتا روزا» ـ التى ولدت فى دمشق عام ١٩٩٢ ـ حاول اللجوء إلى ليبيا ثم إيران واليمن، قبل أن ينتهى به المطاف فى الأردن. وفى عمان تعرف فتاة أردنية حسناء، تدرس طب الأسنان وتدعى «زينة»، ووقع فى غرامها فأرسل زوجته وطفلته لتقيما عند أمه فى فنزويلا (ولكن من هى لينا أو زينة الأردنية ـ من أصل فلسطينى ـ والتى تقول:

إنها زوجة كارلوس الثانية؟. لقد تكشفت قصتها عندما اصطحبها معه من عمان، وأقامت معه فى الخرطوم ـ فى شقته بشارع إفريقيا قرب المطار ـ وحسب رواية المصادر السودانية.. فإنه تزوجها فى دمشق، ويعيشان فى شهر عسل دائم؛ إذ لاتخفى لينا غرامها وولعها بكارلوس فى كل مكان، وتحرص دائمًا على أناقته).

وفى خريف عام ١٩٩٣، وعندما أرادت الأردن عقد اتفاق سلام مع إسرائيل، والتخلى عن موقفها المساند للعراق أثناء حرب الخليج، فكر كارلوس فى الرحيل مرة أخرى، بعد أن حصل على جواز سفر مزور على أنه دبلوماسى لبنانى إلى الخرطوم؛ حيث أقام فى بداية الأمر فى عدة فنادق فاخرة (تقدر ثروة «كارلوس» بحوالى خمسة ملايين دولار، موزعة على عدة حسابات فى بنوك سويسرا، وعدة دول أخرى). وعاش «كارلوس» وسط مجتمع الخرطوم، على أنه دبلوماسى من أصل لبنانى ورجل أعمال يتاجر فى البترول لحساب سوريا ودولة الإمارات. وكما هو متبع وضع الرجل تحت مراقبة أجهزة الأمن السودانية، فكان من الملاحظ كثرة اتصالاته التليفونية بفنزويلا، وببعض العرب المقيمين فى أوروبا، والشرق الأوسط، كما لوحظ أنه يتحدث بلهجة أوروبية وليست لبنانية.

بعد مغادرته الأردن، وقبل احتفالات أعياد الميلاد، أقام كارلوس بصحبة صديقته فى شقة متواضعة بحى السفارات فى الخرطوم.. وفى المنزل المقابل له كان يقيم حرسه الخاص، وعلى مسافة عدة أمتار تقع السفارة الفرنسية.. ولأن أماكن السهر واللهو فى السودان محدودة.. فكان لا يجد الكافيار الإيرانى إلا فى فنادق الدرجة الأولى، والخمر فى النادى اليونانى أو النادى الدبلوماسى.. هذه الأماكن كانت ملتقى رجال الأعمال والدبلوماسيين ومراسلى الصحف ورجال المخابرات والعملاء السريين.. وعندما تعرف «سمير» (من أصل لبنانى) ـ صاحب النادى اليونانى ـ على صور كارلوس، التى ملأت صحف العالم، لم يصدق نفسه أنه هو بالفعل «عبد الله بركات» الزبون الدائم الابتسامة والدعابة.

فى شهر مارس من عام ١٩٩٤ توجه الصحفى المصرى «توفيق» فى مهمة عاجلة إلى الخرطوم؛ حيث بدأ يهتم برجل الأعمال «عبد الله بركات»، وكان الصحفى فى حقيقة الأمر ضابطًا بالمخابرات المصرية، مهمته انحصرت فى مراقبة الأجانب فى الخرطوم وجمع أكبر قدر من المعلومات. وفى إحدى الليالى قام توفيق بدعوة صديقه عبد الله فى سهرة على العشاء؛ حيث قام الداعى بتصوير الحاضرين، وهم يلهون فى مرح. وبعث ذلك الأخير الفيلم إلى القاهرة؛ حيث تعرف رجال الأمن المصريون والأمريكيون على «كارلوس» على الفور، ونقلت هذه المعلومات إلى فرنسا، وعندما بدأ رجال مكافحة الإرهاب الفرنسيون مراقبة صديقته زينة (لينا ـ الأردنية)، تم التوصل إلى مكان الثعلب.

فى هذه الأثناء، قامت السلطات السودانية بفحص جواز سفره واتضح أنه مزيف بعدها صدرت الأوامر بمراقبته وعينوا لذلك فتاة سوادنية حسناء، نجحت فى أن تصبح عشيقته منتهزة بذلك فرصة سفر زوجته الثانية، طبيبة الأسنان الأردنية (أما الحسناء السودانية التى زرعها رجال الأمن السودانيون فى طريق كارلوس، فاسمها «زينب المهدى»، وهى أرملة العميد مهندس الهادى مأمون الراضى، الذى كان وزيرا للأشغال فى الحكومة الأولى للفريق عمر البشير بعد الانقلاب العسكرى. وكان معروفًا بأنه الأب الروحى لثورة الإنقاذ، باعتباره مؤسس أول خلية عسكرية للأصوليين الإسلاميين فى الجيش السودانى).. وتعدّ زينب من سيدات المجتمع السودانى ـ عمرها ٤٥ سنة (فى العام ١٩٩٤) ـ وتملك محلاً، تديره بنفسها فى أرقى أسواق الخرطوم ـ واسمه «شى زد» ـ وهو محل مجوهرات وهدايا ثمينة، وهناك تم اللقاء الأول بينها وبين عبد الله بركات ـ كارلوس ـ وكان يصحب زوجته الشابة لينا (عام ١٩٩٣) لشراء بعض المجوهرات، واتصل الحديث بينهما.. وكما روت زينب: «تعود بعد ذلك الحضور بمفرده؛ حيث يشرب القهوة معى ونتبادل الأحاديث، وأحيانًا كان يشترى هدايا وكان كريمًا جدًّا!»

وهكذا حدث التقارب بين زينب وكارلوس، ووقعت فى شباك غرامه، ودعته ذات ليلة للعشاء معها فى النادى الألمانى ـ وهى عضو به ـ وبعدها تعوّد الاثنان على السهر مرتين أسبوعيًّا. وعلى حد قولها: أحيانًا نذهب إلى النادى الألمانى، وأحيانًا أخرى نلتقى فى شقته ـ فى غياب لينا وكانت فى عمر ابنى نفسه، ولم يكن يبدو عليه اهتمامًا بها!.. ويبدو أن كلا من المرأتين العاشقتين كانت تعتقد بأنها الحب الحقيقى فى حياة كارلوس.. واشتد الصراع الخفى بين زينب ولينا للاستحواذ على قلب دون جوان الإرهابى.

وقد حاول كارلوس إذابة الغيرة بين زينب ولينا، ولكنه لم يفلح؛ لأن الأرملة الطروب تعلقت به ولم تعد تخفى مشاعرها، وأدى ذلك إلى المشاجرة التى وقعت بين ابنها الشاب وبين عبد الله ـ كارلوس ـ فى المحل فى ديسمبر (١٩٩٣)، وأدت للقبض عليه.

وكما روت زينب التفاصيل لصحيفة الصنداى تايمز:

«إنها بالتأكيد غلطة ابنى الذى يشعر بالغيرة من علاقتى مع عبد الله، وعندما جاء إلى المحل وشاهدنا معًا، اشتبك ابنى معه فى مشاحنة، وأخذ يصيح بأن يتركنى فى حالى واعتدى عليه، وحاول انتزاع مسدسه من جيبه، وعندما وصلت الشرطة لفض المشاجرة، اشتبهوا فى جواز عبد الله الدبلوماسى، وضعوه تحت المراقبة بسبب اتصالاته التليفونية مع فنزويلا». وتصف زينب المهدى شخصية كارلوس بأنه ساحر وجذاب، وأنه يشعر المرأة بإحساس خاص، وقالت زينب: إنه باح لها بأنه يتوق للإنجاب مرة أخرى ـ وفهمت أنه يريد طفلاً منها ـ ولذلك دخل المستشفى لإجراء جراحة الدوالى التى تمنعه من الإنجاب!، وقبض عليه إثر حادث سيارة، وقضى ليلة فى قسم الشرطة، ثم أطلق سراحه، ولكنه بدأ يشعر بالقلق فكف عن مقابلة صديقه توفيق.

وفى بدايات صيف عام ١٩٩٤ نجحت الداخلية الفرنسية فى عقد صفقة مع الخرطوم، وفى أغسطس من العام نفسه، أصدر القاضى الفرنسى «برويجيير» أمرًا دوليًّا باعتقال وتسليم كارلوس، وفى يوم ١٤ أغسطس توجه الثعلب إلى مستشفى ابن خلدون لإجراء عملية «فتاق» تحت حراسة أربعة من رجال الأمن السودانى. وتمت العملية بالشكل المعتاد، ويوم الخروج من المستشفى أبلغه رجال الأمن أن هناك محاولة لاغتياله، وأنهم سوف يحملونه إلى سكن آخر لحين كشف المحاولة.

وبالفعل حملوه إلى إحدى الفيلات المؤسسة حديثًا، ومعه زوجته لينا. وفى المساء اصطحبها رجال الأمن بحجة إحضار بعض الحاجيات الخاصة بهما من المنزل القديم، وفى الرابعة صباحا ألقى الحراس بأنفسهم على كارلوس الوحيد فى المنزل، وقيدوه، وقام أحد الأطباء بحقنه، وقالوا له: إنها حقنة الاكتئاب، وألقوا به فى عربة بعد أن غطوا وجهه وأدخلوه فى كيس من أكياس النوم. وحملته العربة إلى المطار، حيث حملته الطائرة إلى فرنسا إلى حيث قصر المخابرات الفرنسية، فرع مراقبة الأراضى فى الحى الخامس عشر فى باريس، وأودع زنزانة (رهن المحاكمة) مساحتها ١١ مترًا مربعًا، وعندما يخرج للتمشية، يتم إخلاء الممرات كلها، واستأجر تلفزيونًا من إدارة السجن واشترى راديو، وتصله الصحف اليومية بانتظام.

والإعلان الفرنسى عن اعتقال كارلوس جاء على دفعات، فقد أكدت السلطات ظهرًا أنه اعتقل من غير أن توضح المكان أو الظروف، ثم قالت: إنه اعتقل فى السودان، الذى سلمه لاحقًا إلى أجهزة مكافحة التجسس الفرنسى، وأنه سينقل إلى سجن لاسنتيه، وفى الخامس عشر من أغسطس ١٩٩٤ عقد وزير الداخلية الفرنسى شارل باسكوا مؤتمرًا صحفيًّا أعلن فيه أن الشرطة السودانية اعتقلت كارلوس صباح الأحد ١٤/٨/١٩٩٤، وأنه نقل إلى باريس بعد مفاوضات بين

الجانبين. وشدد باسكوا على أن السودان الذى وضع فى ذلك العام على القائمة الأمريكية للدول الراعية للإرهاب، لم يطلب أى تعويض لتسليم كارلوس، إلا أنه لمح إلى أنه يود إثبات حسن نيته حيال الغرب، الذى اتفق على عزله، وأضاف: «هذه دولة إسلامية تقطع علاقاتها بالإرهاب، وهذا حدث مهم أبعد من شخص كارلوس»، وأشار إلى أن أى طلب استرداد لم يقدم سابقا إلى سوريا، حيث تردد أن كارلوس كان يقيم «لأننا لم نكن نملك دليلاً على وجوده هناك».

وفى مقابلة مع القناة الأولى للتلفزيون الفرنسى، قال باسكوا: «إن موقف الحكومة السودانية كان كبير الدلالة لأن تسليم أناس على هذا النحو ليس من تقاليد المسلمين. وربما لو كان قد دخل بصورة شرعية إلى السودان، لما كانوا سلّموه. خصوصًا أن هذه الدول لديها تعقيدات ذات غاية بعيدة عن طبيعة دولنا؛ فهناك منظمات فاعلة فيها (المؤتمر الشعبى) بقيادة الدكتور حسن الترابى. ولاحظ باسكوا أن هناك نوعًا من المصادفة بين تسليم كارلوس لفرنسا وطلب الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات من الشرطة الفرنسية توقيف ممثلين لحركة حماس (النشطة ضد إسرائيل على الرغم من الاتفاقات الموقعة بين الجانبين).

ولم يكن وصول كارلوس مقبوضًا عليه إلى باريس، هى المفاجأة الوحيدة، بل إن المحامى «جاك فيرجيس» الذى تصدى للدفاع عنه، أثار هو الآخر الكثير من اللغط فى باريس، عندما نشرت صحيفة الموند إحدى وثائق الستازى «مخابرات ألمانيا الشرقية السابق»، التى تصف المحامى بأنه كان عضوًا عاملاً فى شبكة كارلوس الإرهابية، وهى السابقة الأولى فى تاريخ القضاء الفرنسى، التى يرد فيها اسم الدفاع فى ملف اتهامات موكله.

*** زوج «جميلة بو حريد»:**

* * يطلقون عليه المدافع عن الشيطان، ويصفه أعداؤه بأنه شديد الذكاء

منعدم الضمير.. تعرفه فرنسا مهاجمًا عنيفًا ومنتقدًا لاذعًا للحكومة الفرنسية فى أى مناسبة وكل مناسبة.. ويعرفه العالم العربى زوجًا للمناضلة الجزائرية جميلة بو حريد، ومدافعًا عن الكثير من الوطنيين الجزائريين ضد حكومة الاستعمار الفرنسى.

يتمتع بشخصية فريدة تعشق الأضواء، وتسبح دائمًا ضد التيار لمجرد لفت الأنظار، أمنيته الوحيدة هى الدفاع عن صدام حسين، وبسببه انزوى الإرهابى كارلوس فى خلفية الصورة، واحتل هو صدارتها بعد ٤٨ ساعة فقط من توكيله محاميًـا عن أخطر إرهابى فى العالم.

وفى المقابل وفور أن تولى فيرجيس قضية كارلوس نشرت صحيفة لوموند، الفرنسية تقريرًا مطولاً، تدعى فيه أن المحامى الشهير ساعد الجماعات الإرهابية المختلفة فى نشاطها ضد عدد من الدول الأوروبية، وأن الوثائق التى تم الحصول عليها من الاستازى «جهاز البوليس السرى فى ألمانيا الشرقية» فى عام ١٩٩١، تفيد بأن فيرجيس كان عضوًا عاملاً فى شبكة كارلوس الإرهابية، وأنه كان يعمل تحت اسم حركى هو «هيرتزوج». ويدعى التقرير أيضًا أن فيرجيس أسهم فى تمويل مجموعة كارلوس الإرهابية، التى كانت لها صلات بالنظام القائم فى ألمانيا الشرقية.. والأكثر من ذلك أنه تورط فى عملية الحصول على صواريخ؛ من أجل تنفيذ عملية الهجوم المخطط على المفاعل النووى الفرنسى فى «كريسى مالفيل» عام ١٩٨٢.

وعلى الرغم من أنه كان يبلغ التاسعة والستين، وقت توليه الدفاع عن كارلوس فى العام ١٩٩٤، إلا أنه بدا أصغر من سنه كثيرًا.. وتبرز مهاراته بصفة خاصة فى قضايا الإرهاب، ولكنه لا يمانع فى أن تنحرف اهتماماته ١٨٠ درجة.. فقد دافع أخيرًا عن عاهرة رفعت دعوى ضد قواد.

منزله ومكتبه الخاص هو دليل آخر على شخصيته الفردية، فهو يقع فى أحد الأحياء الباريسية الفقيرة، التى لا تتناسب مع مكانته وشهرته وثرائه، خاصة أنه

يأتى إليه عملاء من جميع أنحاء العالم، من بينهم رؤساء عدد من الدول الإفريقية.

وقد ولد فيرجيس فى عام ١٩٢٥ فى سيام، التى تعرف الآن باسم تايلاند، وكان والده ديبلوماسيّا فرنسيّا، ولكنه أجبر على الاستقالة؛ لأنه ارتكب الخطأ الذى لا يغتفر وهو الزواج من فيتنامية.. وقد توفيت والدته الفيتنامية، وهو لم يتعد بعد الثالثة عن عمره.

ويعتقد بعض الباحثين فى شخصية فيرجيس بأن أصوله المختلطة هى السبب وراء كراهيته الشديدة لقيم ومبادئ البرجوازية، وقد تردد كثيرًا أن كراهيته للاستعمار والسلطة الفرنسية تولدت مع إحساسه بالظلم، الذى وقع على والده عندما أجبر على الاستقالة والرحيل من سيام، ولكن فيرجيس يعترف بأن هذه المشاعر تسلطت عليه فى مرحلة متأخرة، عندما اشترك فى الحرب ضد النازية، ثم عندما وقف فى المحاكم الجزائرية، مدافعًا عن الوطنيين الجزائريين. وقد تشربت مراحل شبابه بالأفكار الشيوعية والماركسية؛ خاصة أن والده كان شيوعيًّا فأصبح من أشد المدافعين عن قضايا الجناح اليسارى فى جميع أنحاء العالم.. وعلى الرغم من هذا لم يجد أى غضاضة فى أن يقوم فى عام ١٩٨٧ بالدفاع عن «كلاوس باربى»، السفاح النازى، الذى اشتهر باسم «جزار ليون».

فى سن السابعة عشرة، انخرط فى صفوف قوات فرنسا الحرة بقيادة الزعيم الراحل «شارل ديجول» فى لندن، وبعد عودته إلى باريس انضم إلى الحزب الشيوعى الفرنسى، الذى استقال منه عام ١٩٥٧.. وفى عام ١٩٦١ استضاف الزعيم الإفريقى نلسون مانديلا، والذى كان أيامها متمردًا مُطاردًا.

بعد انتهاء الحرب العالمية، قضى فيرجيس عامًا فى براغ، مسئولاً عن النشاط المضاد للاستعمار فى منظمة غامضة كان يرعاها ستالين، تحمل اسم «الاتحاد الدولى للطلاب». وستالين له مكانة خاصة عند فيرجيس؛ فهو يعتقد أنه شخص عظيم، وأن الغرب أساء تقديره. وقد تزوج فى باريس بعد انتهاء الحرب من زوجته

الأولى «كوليت»، والتى طلقها عندما تعرف زوجته الثانية «جميلة بو حريد» (المناضلة الجزائرية الشهيرة)، ودافع عنها فى المحكمة وهو يعترف بأنه أحب جميلة من أول نظرة، عندما التقى بها فى مكتب أحد المحامين، وتزوجها فى عام ١٩٦٣ وأنجب منها طفلين، وعين آنذاك مستشارًا للرئيس الجزائرى أحمد بن بيللا.

ومن الألغاز المحيرة فى حياة «جاك فيرجيس»، التى لم يستطع أحد أن يحلها حتى الآن، أنه فى عام ١٩٧٠ (فى هذا الوقت كان يعيش فى الجزائر مع زوجته وابنته)، وفى إحدى أمسيات شهر فبراير، دعى لحضور أحد المؤتمرات السياسية فى باريس، وبعد أن ألقى خطبة نارية، هاجم فيها الإمبريالية، خرج ولم يعد إلا فى خريف عام ١٩٧٨؛ أى بعد ثمانية أعوام ونصف العام.

وقد قدمت تفسيرات عديدة من بينها أنه قضى السنوات الثمانى يعمل مستشارًا لزعيم الخمير الحمر فى كمبوديا «بول بوت» صديقه الشخصى منذ زمالتهم الدراسية فى باريس، وبعضهم يقول: إنه كان مختفيا لاشتراكه فى مهمة كتابة الدستور الجزائرى عام ١٩٧٣، وذهب بعضٌ آخر إلى أنه كان فى معسكر فى الصحراء، يتلقى تدريبًا على الأعمال الإرهابية.

وجاك فيرجيس يتمتع بمهارات قانونية لاخلاف عليها، وهو على دراية كاملة بكل الجوانب القانونية فى أى مجال؛ فهو يعمل مستشارًا لرجال الأعمال البريطانيين، الذين يتعاقدون لتنفيذ مشروعات مع الحكومات الإفريقية، ولكنه يقبل بسهولة الدفاع عن الزوجات فى قضايا الطلاق؛ خاصة إذا كان الزوج من رجال الصناعة الأثرياء.. وقد لجأ إليه «مارلون براندو» للدفاع عن ابنته «ستين»، عندما اتهمت بقتل صديقها فى تاهيتى عام ١٩٨٠.

وقد دافع أثناء حياته عن كثير من الوطنيين الجزائريين، وكانت أشهر قضية تولاها هى قضية زوجته جميلة بو حريد، التى حوكمت فيها بتهمة الاشتراك فى

الهجوم على مقهى فرنسى فى الجزائر وأدينت وحكم بإعدامها، ولكن سرعان ما استطاع فيرجيس تحويل مسار القضية بالهجوم على السلطة الفرنسية، واتهمها بأنها فشلت فى تقديم الأدلة الكافية ضد المناضلة الجزائرية، وتعذيبها بأبشع وسائل التعذيب فى السجن، ثم أصدر فيرجيس مع زميل له كتابًا بعنوان «من أجل جميلة بو حريد»، أثار حملة دولية، أجبرت الرئيس «كوتى» على إصدار عفو عنها واعتذار رسمى (فى عام ١٩٥٨) بعد انهمار سيل من النداءات عليه.

تولى فيرجيس بعد ذلك الدفاع عن القضايا الإفريقية ودول العالم الثالث، وأصدر صحيفة كان من كتابها تشى جيفارا والجنرال جياب وريجبيس ديبريه وآخرون.. ولكن الأيام أثبتت لفيرجيس أنه ليس بالضجة وحدها يمكنه أن يكسب كل القضايا، ولهذا كانت قضية «عمر رداد» المغربى الأصل بمثابة جرس الإنذار فى مشوار حياته الطويل.

وقد قبل فيرجيس الدفاع فى قضية عمر دون أى مقابل لمجرد أنها قضية صعبة وشائكة، فقد اتهم عمر بقتل المرأة الفرنسية الثرية، التى كان يعمل لديها فى يونيو عام ١٩٩١، وسبب الاتهام أنه وجد على الحائط بجوار الجثة عبارة مكتوبة بدم القتيلة تقول «عمر قتل»، وعلى الرغم من أن هذا كان دليل الإدانة الوحيد فى هذه القضية، إلا أن جاك اتخذه أيضًا وسيلة دفاع فالعبارة خاطئة؛ إذ من المفروض أن تكون «عمر قتلنى»، فهل معنى ذلك أنها، وهى المعروفة بثقافتها العالية قد أجبرت على كتابتها، أم أن شخصًا آخر كتبها ليورط عمر؟. ولكن القاضى لم يقبل الدفاع وأصدر حكمه بإدانة عمر رداد، وهنا فقد جاك فيرجيس أعصابه، واتهم المحكمة بممارسة العنصرية ضد المواطن المغربى، وأنه لو كان فرنسيًا لما أصدرت مثل هذا الحكم.. ولكن الضربة القاصمة وجهت إلى فيرجيس من رداد نفسه؛ عندما قرر الاستغناء عن خدماته، وتوكيل محام آخر للدفا عنه فى الالتماس. والجدير بالذكر أنه فى عام ١٩٩٥ تخلى جاك فيرجيس عن الدفاع فى قضية كارلوس!

* «بوضيا»:

* * كانت الأوامر الصادرة بالشفرة من مكان ما فى الشرق الأوسط إلى كارلوس تقول: إلى الرجل الثعلب.. بوضيا فى انتظارك فى باريس.. وهكذا انضم كارلوس رسميًّا إلى الجماعة السرية للفدائى الجزائرى محمد بوضيا، والتى لعبت دورًا كبيرً فى الصراع بين الفلسطينيين، ومخابرات إسرائيل فى أوروبا.. كانت العلاقة بين بوضيا وكارلوس أشبه بالعلاقة بين أستاذ وتلميذه، وعلى الرغم من فارق السن بينهما، فقد كان هناك تشابه كبير فى الملامح بين الأستاذ والتلميذ، حتى إن مخابرات إسرائيل، وهى تنسف سيارة بوضيا فى أحد شوارع باريس، لم تكن متأكدة فى البداية هل كان ذلك بوضيا الذى تمزق فى الانفجار، أو الرجل الذى يشبهه تمامًا؟!

كانت عملية اغتيال بوضيا بأوامر من جولدا مائير شخصيًّا إلى جماعة «غضب الله» الإسرائيلية التابعة لمكتبها، وكان بوضيا فنانًا موهوبًا، ومن زعماء ثورة الجزائر المقربين إلى بن بيللا، وقد نشأ فى أسرة فقيرة للغاية فى ريف الجزائر، وعندما هاجر إلى الجزائر العاصمة لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة، وكان زملاؤه يسخرون منه ويسمونه الفلاح الجاهل.. ولكن هذا الفلاح الجاهل عرف كيف يثير الرعب فى قلوب المستوطنين الفرنسيين فى سلسلة من العمليات الجريئة.. حتى سقط فى أيديهم.

وعلى الرغم من العذاب الذى تعرض له فى السجن والذى لايتحمله بشر، لم يبح بوضيا بكلمة واحدة عن زملائه فى جبهة التحرير الجزائرية، واستغل بوضيا فترة السجن الطويلة ليتعلم الكتابة والقراءة؛ حتى تمكن بعد ثلاث سنوات من أن يقرأ الأدب والمسرح الفرنسى!

وعندما جاء ديجول إلى الحكم، خرج بوضيا من السجن، عند إعلان استقلال الجزائر. ولكن الأقدار لم تدعه ينعم بالراحة طويلاً، فقد وقع الانقلاب الذى أطاح بزعيمه المثالى بن بيللا، وجاء بومدين إلى الحكم، وأدرك

بوضيا أنه سوف يدفع ثمن صداقته لبن بيللا، فاختار أن يهرب سرًا إلى المنفى فى فرنسا.

وهناك فتحت باريس ذراعيها للثائر القديم، كان يهوى التمثيل! وخاصة دور هاملت؛ فعمل بالمسرح الفرنسى وظل يترقى ويتقدم؛ حتى أصبح مديرًا لمسرح الغرب المعروف فى فرنسا بـ «تياترو دى لويست»، وفى كل ليلة بعد أن ينتهى التصفيق ويسدل الستار، كان بوضيا الفنان يتحول مرة أخرى إلى بوضيا الثائر والفدائى، الذى يتزعم أخطر خلية سرية للفلسطينيين فى أوروبا، وكانوا يسألونه أحيانًا: ولماذ الفلسطينيون؟ فكان يجيب: ولم لا ؟ ألسنا ضد الاستعمار فى أى مكان.. لماذا لا أقف مع الفلسطينيين؟

وعندما انضم كارلوس إلى خلية بوضيا السرية، كان يحس فعلاً أنه أمام أستاذ له ماض مشرف، يتمنى أن يصل إليه كل ثائر. ولكن كيف التقى كارلوس لأول مرة مع بوضيا. الإجابة ببساطة، نجدها هناك فى إحدى الدورات الثورية التى جمعت بينهما بجامعة باتريس لومومبا بموسكو؛ فبعد أن ذهب بن بيللا وقبل توجه بوضيا إلى فرنسا، كانت الأمور قد ساءت فى الجزائر، وقرر الانقلابيون الذين أطاحوا ببن بيللا التخلص من بوضيا بقتله، وبسرعة استطاع محمد بوضيا أن ينجو من جديد، متنكرًا بزى صياد، تاركًا شاطئ وطنه الأم، وأقسم أنه سينتقم يومًا لابن بيللا الرجل الذى أعده إلى الخروج من المجهول.

لجأ الجزائرى إلى أمريكا اللاتينية تيمنًا بالكثير من اللاجئين السياسيين، وموهبته، قد تعود بالفائدة فى أثناء الاضطرابات السياسية، فى أرض يحترم فيها الوطنيون فيدل كاسترو، الرجل الوحيد الذى استطاع أن يسخر من المستعمرين فى هافانا.

هناك راح محمد بوضيا يشرح بإسهاب الخطوط العريضة للمخطط، الذى يسمح له بمساندة اليسار الجزائرى، لإعادة السلطة إلى بن بيللا، وهو على ثقة أنه مازال على قيد الحياة. وأخذ بوضيا يشرح بكل ثقة طريقة تفكيره، موضحًا

أنه لو يملك الإمكانات لأغرق الجزائر فى دماء الذين «خانوا الثورة الحقيقية»، فهو خريج الحرب السرية، قاتل مع جبهة التحرير القومية، وهو واحد من الذين طردوا الفرنسيين إلى الجهة الأخرى من المتوسط.

فى أمريكا اللاتينية، تعرف محمد بوضيا على رجل كوبى، ووعده بالمساعدة، شرط أن يذهب معه إلى هافانا، حيث يجد أناساً يتمتعون بإرادة طيبة، ولديهم كل الوسائل، ويحبذون أفكاره.

ولدى وصولهما، أمضيا بعض الوقت فى إحدى قاعات السفارة السوفيتية فى هافانا، وهم يتحدثون عن العالم عمومًا، وبشكل هامشى ورويدا تحول الحديث إلى ذكريات قديمة، إذ قال له دبلوماسى روسى: «نعلم الدور الذى لعبته فى استقلال الجزائر، وفخر لى أن ألتقى بأحد الرجال القلة الذين استطاعوا مثلك، طرد الطاغى الأجنبى». كان الروسى يستمع بصمت.. أحيانًا برصانة، وأحيانًا بابتسامة خفيفة، ولم يشح بنظره عن بوضيا أبدًا.

وأخيرًا، وصلته دعوة غير منتظرة إلى العشاء فى السفارة، وما أن أنهى طعامه حتى بادره الروسى بالقول: «لقد قررنا أن نساعدك، ولكن علينا أن نتعرفك شخصيًا، وهذا يعنى السفر إلى موسكو، وأنا متأكد بأننا سنتفق، لذلك عليك السفر بعض الوقت إلى الاتحاد السوفيتى، والمكوث هناك».

نزل بوضيا فى أضخم الفنادق، وتعرف شخصيات من الطبقة الراقية، الكل فى خدمته وتحت تصرفه، وهو الآن يعيش فترة نقاهة، ولن يفكر فى شىء، فانصرف إلى حياة اللهو والمرح، والروس من جهتهم يراقبونه دون التدخل بأى أمر.

مرت أيام عدّها بوضيا أنها رهيبة: أيام تقرير المصير.

وأتى الرد فى النهاية لمصلحته: قبل الروس وسيعملون على مساعدته بإنشاء حركة سرية فى الجزائر، «ولكن بالمقابل لنا مطلبان أساسيان» أوضحوا هذا بلباقة.. المطلب الأول: أن تمضى بعض الوقت فى جامعة باتريس لومومبا.. أما المطلب الثانى: «فسنطلعك عليه فيما بعد».

باتريس لومومبا، اسم أطلقه الزعيم الكونغولى الراحل، جامعة لاتتشابه مع أى جامعة روسية أخرى، ولا مع أية جامعة فى العالم العربى.. هدفها الوحيد والأساسى هو تخريج زعماء ثوريين فى إفريقيا، وأمريكا اللاتينية، والشرق الأوسط وأوروبا، وتثقيفهم فى الأيديولوجية الماركسية، فضلاً عن تدريبهم عمليـًّا على حرب العصابات والإرهاب. باختصار، هذه هى الخطوط العريضة لثقافة بوضيا المستقبلية فهو اختير بدقة، مثل مئات الطلاب ليصبح مقاتلاً مستقلاً، يتقبل المبادئ الأساسية للسياسة التوسعية السوفيتية... فهم محمد بوضيا منذ البداية أن الجامعة أنشئت لاختبار إمكانية المرشحين فى خدمة خطط الاستخبارات وسياسة الاتحاد السوفييتى.

علم محمد بوضيا من أصدقائه فى الجامعة، أنه ستقام حفلة ساهرة فى المساء. وسيكون كارلوس ضيف هذه الحفلة. وصل الجزائرى باكرًا إلى مسرح الجامعة، وانزوى بين حائط ومقعد، يراقب باهتمام كبير وصول الشاب الذى سمع عنه الكثير، قيل له: إن كارلوس لايضاهى فى كل ما يفعله. إنه رياضى ممتاز، ذكى باهر، لايمكن لأحد أن يقاومه.. كل هذا ليس مهمـًّا الآن. المهم أن يصل كارلوس ويراه ليتعرف عن كثب، ويتأكد بنفسه إذا كان يشبهه ـ كما يقال.. وصل كارلوس قبل منتصف الليل بقليل، هادئ، عيناه تلمعان، وجيتاره على كتفه. دخوله المسرح كان معدّا سلفًا، ومع هذا فإنه دخل الغرفة بطريقة سرية ومدروسة لدرجة أن بوضيا ـ وهو الأول والمعلم فى هذا المجال ـ تأثر به!

كان واضحًا لبوضيا أن وراء مظهر كارلوس المتواضع، صورة مختلفة، هى صورة الإرهابى، الذى يتمتع بشهرة كبيرة، وله عجرفة وغرور كل الناس الموهوبين، ويشعر بالمجد تجاه إصغاء مستمعيه له، وماهى إلا أيام حتى أصبح كارلوس وبوضيا صديقين حميمين؛ خاصة بعدما تفوقا على جميع أقرانهما فى الجامعة، وأصبحا محل شهرة واسعة. وكانت أول مهمة كلفه بها بوضيا أن يفكر فى عمليات محتملة تخدم القضية الفلسطينية، وعاد كارلوس ومعه قائمة بأسماء الزعماء اليهود فى بريطانيا، والذين يتعاطفون مع إسرائيل. وقد ـ حصل

كارلوس على القائمة من صحيفة (جويش كرونيكل) اليهودية، وكان بين الأسماء فيها الكاتب المسرحى «جون أوزبورن»، وزوجته الممثلة «جيل بنيت»، والموسيقار المعروف «يهودى مينوهين»، وأسرة سييف التى تملك محلات مارك آند سبنسر، المعروفة فى لندن. ولكن بوضيا لم يكن يميل إلى إعطاء الضوء الأخضر لهذه العمليات فى بريطانيا؛ حتى يظل بوليس سكوتلانديارد بعيدًا عن أعضاء خليته السرية، الذين يستفيدون كثيرًا من الأحوال الهادئة فى لندن.

ولكن الهدوء لم يستمر طويلا، فقد وقعت مذبحة أوليمبياد ميونيخ فى سبتمبر ١٩٧٢، وتحت أضواء البوليس الألمانى شديدة الكثافة فى مطار ميونيخ، حاول الألمان نصب كمين للفدائيين من منظمة «أيلول الأسود» وفشل الكمين، وكانت النتيجة مصرع أحد عشر رياضيًّا من أعضاء الفريق الأوليمبى الإسرائيلى، وجنَّ جنون جولدا مائير، وأخذت تسب وتلعن فى مخابرات إسرائيل الفاشلة، وفى هؤلاء الأوروبيين الأغبياء، الذين لم يستمعوا إلى تحذيرات إسرائيل المستمرة من الإرهابيين.. وقررت جولدا مائير تشكيل جماعة سرية للانتقام اسمها «غضب الله»، وتتألف من رجال ونساء سبق لهم الخدمة فى سلاح المظلات الإسرائيلى.

باختصار كانت مجموعة لديها أوامر بالقتل، وبدأت بقتل الصحفى السورى خضر كانو، زميل بوضيا ورجل الاتصال بينه وبين الجبهة فى باريس، ثم قتلوا «وائل أبو زعيتر» ممثل منظمة فتح فى روما، ثم وضعوا قنبلة فى تليفون محمود الهمشرى عضو خلية بوضيا السرية، وعندما رفع الهمشرى سماعة التليفون انفجرت القنبلة، ومزقته تمامًا فقرر بوضيا ودكتور حداد الانتقام.. وفعلاً سافر بوضيا إلى مدريد بإسبانيا. وفى يناير ١٩٧٣ عثر البوليس الإسبانى على إسرئيلى يدعى «يورى مولو»، وقد لقى مصرعه بالرصاص فى الشارع، وعندما طلبت إسرائيل إعادة الجثة إليها لدفنها فى مقابر الأبطال، تبين أن يورى هذا من أكبر رجال المخابرات الإسرائيلية فى أوروبا، وأن اسمه الحقيقى «باروخ كوهين»، ومن هذه العملية توصل الإسرائيليون إلى خلية بوضيا، وصدر القرار فى مكتب

جولدا مائير بالتخلص من بوضيا بأى ثمن، وتولت جماعة «غضب الله» الإسرائيلية تنفيذ المهمة، ونسفت بوضيا بقنبلة داخل سيارته، وقد قام بتنفيذ عملية اغتيال بوضيا أخطر عملاء الموساد وشهرته «الصياد».

توصل الصياد إلى طريقة جهنمية بأن اصطحب سيارة نظافة ضخمة إلى ورشة ميكانيكية خاصة، وأدخل تعديلاً هندسيًّا شيطانيًّا عليها، بأن ثبت ذراعًا طويلاً أسفل السيارة، يتم تحريكه بزر موجود فى التابلوه، بحيث يخرج ويدخل مخفيًّا أسفل المركبة بطريقة آلية، وعلى الذراع وضع الصياد قنبلة اختفت مع الذراع أسفل العربة، وعندما لمح بوضيا يهبط من سيارته مع حراسه، توقف بعربته جانبها، ودون أن يدرى أحد حرك الذراع ليزرع القنبلة أسفل سيارة الجزائرى، وعندما بدأ بوضيا ينطلق بها نسفها الصياد عن بعد.

وعندما تولى كارلوس مهام بوضيا، كانت أول عملية له اغتيال الصياد، أخطر عملاء الموساد، وتركزت خطة كارلوس على أن يجعل الرجل الخطير يعتقد أنه عثر على كارلوس، المطلوب رأسه بشدة للإسرائيليين؛ فأخذ يظهر ويختفى له ليجره فى أثره من مكان لآخر. ولشدة براعة ودهاء كارلوس، فقد استعان برجل يشبهه تمامًا، وبالفعل فى مرحلة تالية، كان الصياد لايعلم هل يقتفى حقًّا أثر كارلوس أم الشبيه، وعندما أوهم كارلوس الصياد بأنه سقط فى الفخ الذى نصبه الأخير له، لم يكن هو نفسه فى الفخ؟ وإنما الشبيه. وعندما هم الصياد بقتل الشبيه معتقدًا أنه كارلوس، كان صاحبنا يطلق عليه الرصاص من الخلف، انتقامًا لصديقه بوضيا. ومن هنا أصبح كارلوس زعيمًا وأبًا روحيًّا لجماعة بوضيا!

*** د. «وديع حداد» و«جورج حبش»:**

* * لايمكن أن نتناول حياة كارلوس وأشهر عملياته ودوره الخطير على مسرح الأحداث، إبّان الحرب الباردة والصراع العربى الإسرائيلى، دون أن نتطرق إلى علاقاته وخاصة مع شخصيات أخرى مؤثرة، لعبت دورًا خطيرًا أيضًا هى الأخرى على الساحة الإقليمية والدولية، ومن بين هذه الشخصيات التى كانت

مؤثرة للغاية بالنسبة لكارلوس وديع حداد، أستاذ كارلوس الثانى، وقائده بعد الجزائرى بوضيا، والرجل القوى الذى دخل من خلاله منطقة الشرق الأوسط.. كان وديع حداد رفيق صبا جورج حبش، كبرا معًا ودرسا معًا وناضلاً معًا.. كانا فى الجامعة الأمريكية فى بيروت، عندما نكبت فلسطين عام ١٩٤٨.. وعادا لبعض الوقت، قبل أن يتركا الوطن؛ ليلعبا دورًا محوريًّا فى تأسيس حركة القوميين العرب، وتزويدها بالكلمات القليلة التى شكلت ترسانتها الفكرية.

وبعد عمليات محدودة ضد الكيان الصهيونى، انخرط وديع حداد فى عمل سياسى لايستهويه كثيرًا، واكب المنعطفات الفكرية لـ «حركة القوميين العرب».. وبعد عدوان ١٩٦٧ تولى حداد فى إطار «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» مسئولية العمل فى الخارج، وأثبت أنه ـ من غير شك ـ أحد كبار العقول المدبرة والمخططة والمنفذة لـ «العنف الثورى» على امتداد العالم؛ حتى إنه يقال عنه: إنه كان يحفظ عن ظهر قلب مواعيد إقلاع الطائرات، فى عدد لايحصى من المطارات.. عقد صلات متينة مع «عدن» الثورية (رفاقه فى الحركة، ثم فى التحول اليسارى)، ومع جزائر هوارى بومدين، غير أن ميزته تبقى فى تلك الشبكة الواسعة جدًّا من العلاقات مع كوكبة من التنظيمات، على امتداد الكرة الأرضية، ولم يكن كارلوس سوى ذراع من هذه الأذرع.. وقد تميز وديع حداد فضلاً عن ميله إلى العمل المباشر، عوضًا عن التنظير بخصلتين: القدرة الهائلة على التنكر والوفيات المتكررة، فقد استفاد من كونه طبيبًا ليطبق على نفسه جراحات تجميلية، تجعله يتغير كل مرة، ويصبح غريبًا حتى عن أقرب المقربين إليه، وبلغ احترامه للسرية درجة، دفعت به مرة إلى إعلان استشهاده وحضور جنازته شخصيًّا.

لم يكن قدوم كارلوس إلى المنطقة مصادفة، دفعته إليها المخابرات الشرقية، أو لتنفيذ مخططات وضعتها له مخابرات الدول الغربية. ولكن كان قدومه على

أيدى وديع حداد، الشخصية الثانية فى منظمة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، والذى يعدّ أهم منظم للعمليات الإرهابية ذات الطابع الدولى، والذى تطور اسمه لكى يصبح معبرًا عن مصدر الرعب والإرهاب فى المنظمات الفلسطينية، وقد انشق وديع حداد عن جورج حبش فى نهاية عام ١٩٧٤، ولم يجد دولة عربية تقبله سوى اليمن الجنوبية؛ حيث جعل من عدن مركزًا لنشاطه، ومنحته اليمن الجنوبية الدعم والمساعدة ونوعًا من الحرية.. وكانت أهم الخلايا التابعة له فى باريس، ويديرها محمد بوضيا، الذى أحدث اغتياله ارتباكًا فى خطط المنظمة.

وقد تم حل مشكلة استبدال محمد بوضيا بشخص آخر يتولى عمليات المنظمة فى أوروبا، حيث قدمت المخابرات الروسية كارلوس، كمرشح لتولى خلافة بوضيا، وتم استدعاؤه من لندن، حيث لم يقتصر دوره على مجرد التقاط الخيط الذى سقط من بوضيا، وإنما أيضًا أدخل أسلوبًا وعناصر جديدة فى العمليات، حيث اشتركت معه مجموعات للإرهاب الدولى، تضم عناصر من الجيش الأحمر اليابانى ومنظمة بادرماينهوف الألمانية، وجيش تحرير الشعب التركى، وغيرهم من العناصر الإرهابية الأخرى.. وقد تقابل كارلوس مع وديع حداد فى اليمن الجنوبية؛ حيث ناقشا أسلوب العمل فى خلية باريس، واستقر الرأى على أن تظل تلك الخلية تحمل اسم «فدائيى بوضيا».. وفى مقر الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، كانت هناك صورة كبيرة لـ «كارلوس»، إلى جانب صورة وديع حداد وصورة جورج حبش زعيم الجبهة.

وفى أوائل السبعينيات كان حبش وحداد وكارلوس أشباحًا مثيرة للرعب للغرب وللأمريكيين، تحاك حولهم الأساطير وتنسج القصص الخيالية بعد سلسلة طويلة من عمليات خطف الطائرات الناجحة، وبعد عملية ميونيخ الشهيرة التى قتل فيها بعض أعضاء الفريق الرياضى الإسرائيلى خلال الألعاب الأوليمبية.

كان وديع حداد هو مهندس العمليات الخارجية وعمليات خطف الطائرات، وكان حبش هو الزعيم، الذى يتبنى الكثيرون أفكاره القومية، ومنهم كارلوس نفسه الذى أصبح بعد ذلك رئيس قسم العمليات بالجبهة.. وبعد إعلان حبش من خلال مؤتمر صحفى عالمى بمخيم شاتيلا، انتهاء عمليات خطف الطائرات، وانتهاء مرحلة العمليات الخارجية، بدأ نجم كارلوس يصعد بقوة، ونسبت إليه ست عمليات متتالية.. وكانت أفكار حبش وحداد التى تبناها كارلوس فى ذلك الوقت تنادى بأن الرأى العام هو وحش هائج، وأن العنف الثورى المتمثل فى العمليات الخارجية، هو القادر على تهييج الرأى العام، وإخراج القضية الفلسطينية من حالة السكون والجمود، التى تعرضت لها بعد نكسة ١٩٦٧، ثم بعد أحداث سبتمبر (أيلول) الأسود الدامية.

ولكن حبش توقف عام ١٩٧٢ ـ واستمر كارلوس.. والعلاقة الفعلية بين كارلوس والفلسطينيين، كانت قد بدأت فى الأردن عام ١٩٦٩ خلال أحداث سبتمبر (أيلول) الأسود على يد «أبى داود»، أحد رجال أبى إياد، والمساعد الرئيسى لـ «على حسن سلامة» قائد القوة ١٧، ورئيس عمليات أيلول الأسود. وقد أقام كارلوس شبكة ضخمة من العلاقات، ساعده فى ذلك إجادته لسبع لغات، هى: الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية والروسية والعربية والأرمنية، وأجاد كارلوس أيضًا عمليات الظهور والاختفاء والتخفى والتنكر، لدرجة أنه فى كل بلد كان له اسم وشكل مختلفان! وكان اسمه الحركى فى سوريا ولبنان «سالم»، وفى المجر «عادل».

كان طبيعيًّا أن يتوقف كارلوس فلم يبق سواه فى الساحة، فـ «حبش» اعتزل العمل الخارجى فى مؤتمر صحفى وحداد مات، وكل قادة منظمة أيلول الأسود التى كانت تنسق مع الجبهة الشعبية قتلتهم إسرائيل: على حسن سلامة وكمال ناصر وكمال عدوان ويوسف النجار ومحمد بوضيا، ثم قتل أبو إياد على يد أحد رجال «أبى نضال».

وعلى الرغم من اعتزال كارلوس فإنه ـ وحسب مصادر الجبهة الشعبية ـ تمنى القيام بعملية واحدة فقط؛ حتى لو كلفته عمره، وهى اغتيال الملك حسين عاهل الأردن وبعده أحمد زكى اليمانى وزير البترول السعودى السابق، فقد كانت السعودية هى الدولة العربية الوحيدة التى طاردت ولاحقت كارلوس، وسعت بكل الاهتمام للقبض عليه، وتعاونت فى ذلك مع أجهزة المخابرات الأمريكية والأوروبية، ولم تكتف بذلك، بل أرسلت ضباط مخابرات أكثر من مرة إلى ليبيا ليطلبوا من العقيد معمر القذافى مساعدتهم فى القبض على كارلوس، وفى كل مرة كان القذافى يخبر الضباط السعوديين بأنه لا يعلم أى شىء عن كارلوس.

وفى إحدى المرات الأخيرة، وحتى يوقف هذا البحث المكوكى الذى لا يروق له ـ أخبرهم أن كارلوس قد مات، وفقًا لمعلومات وصلته. وكانت السعودية قد عدّت حادث اختطاف وزراء الأوبك فى فيينا عام ١٩٧٥ موجهًا بالدرجة الأولى ضدها، وهو مالم ينكره كارلوس قائد عملية الاختطاف.

غياب حداد حوّل كارلوس إلى مايشبه الإرهابى المتقاعد، الذى يبحث عن ملجأ، وحاول أن يؤسس تنظيمه، وانشغل بالعثور على مأوى فى الشرق الأوسط أو أوروبا الشرقية، وتمكن «سليم أبو سالم»، الذى أخذ مكان حداد من ترتيب إقامة له فى سورية، فأقام فيها جزءًا كبيرًا من الثمانينيات، وبعد بدء عملية السلام طالبت الولايات المتحدة سورية بترحيله، ولكن ليبيا أعادت الهدية، ورفضت صنعاء استقباله بعدما أمضى أسبوعًا فى المطار مع طفلته وزوجته ووالدتها وحقيبة تحوى نحو مليون دولار.. رفضت اليمن استقباله، ووافق السودان، خصوصًا وأن كارلوس كان قد أقام بعض الصلات مع عناصر أصولية.

أما بالنسبة لقصة وديع حداد مع الكفاح الفلسطينى المسلح والتنظيمات السرية، فتعود إلى ما قبل أيام الشهرة الدولية التى حققها مع رئاسة العمليات الخارجية فى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وبعدها قيادة «ذراع الثورة العربية».

وهذه النشاطات حوّلت وديع حداد الزعيم الأول لما يسمى بـ «الإرهاب الدولى»، وما يسميه هو «الثورية العالمية». وبفعل هذه العمليات، تحول حداد بشهادة كثيرين إلى «مخترع أشهر وسائل الإرهاب فى هذا العصر»، كما يصفه خبير الإرهاب الفرنسى «كزاخييه روفر»، أو «مخترع الإرهاب المعاصر» كما يسميه خبراء غربيون آخرون. وبشهادة «بيار ماريون» رئيس جهاز الاستخبارات الفرنسية السابق، كان حداد يعدّ «أول من اخترع البنى، ودرب المسئولين الرئيسيين، وأتقن وسائل التجنيد والتأهيل، وطور تقنيات وتكتيك العمليات المسلحة». . فحمل حداد بجدارة لقب «الأستاذ» والرأس المخطط.

لكن خبرة حداد ابن «صفد» المولود فى عام ١٩٢٨، فى التنظيمات السرية والعمل المسلح تعود إلى ما قبل الجبهة الشعبية، وتساهم بلا شك فى تحوله إلى رمز من رموز النضال الفلسطينى التاريخية. وبداية جورج حبش ووديع حداد انطلقت من الجامعة الأميركية فى بيروت؛ حيث كانا زميلين فى دراسة الطب. وأول نشاط لوديع حداد الطالب، كان بتشكيل تنظيم سرى باسم «كتائب الفداء العربى» فى أواخر الأربعينيات، إذ أخذ على عاتقه شن حملة ضد المؤسسات الجمهورية فى البلاد العربية، واغتيال كل من يعدّ مسئولاً عن ضياع فلسطين. وبالفعل قام هذا التنظيم بعمليات تفجير لبعض المرافق اليهودية، كنسف كنيسة فى بيروت، كما قام بمحاولة اغتيال «أديب الشيشكلى» فى دمشق، وكان رئيسًا للأركان، ومحاولة اغتيال الملحق العسكرى فى السفارة البريطانية فى دمشق. وتعرض أعضاء التنظيم للاعتقال فى دمشق، بعد محاولة اغتيال الشيشكلى، وكان بين المعتقلين رموز من «الشباب القومى العربى»، مثل: جهاد ضاحى وهانى الهندى اللذين أصبحا فيما بعد وزيرين فى سورية، والمصرى على عامر الذى كان تنظيم حداد اندمج مع تنظيمه المصرى.

ومع بداية الخمسينيات بدأ حبش وحداد يتخليان عن فكرة العنف المسلح، وفكا رباطهما مع التنظيم المصرى، وتوجها نحو إقامة تنظيم سياسى. وأول ما

فعلوه السيطرة على جمعية «العروة الوثقى» فى الجامعة الأميركية فى بيروت، وأصبحا من أصحاب النفوذ على أبرز منابر الوعى فى بيروت آنذاك؛ حيث كانت محاضرات الجمعية منبرًا لحبش وحداد. وبعدها أنشأ «هيئة مقاومة الصلح مع إسرائيل»، وأصدرا نشرة أسبوعية باسم «نشرة الثأر». ومن خلال النشاط الثقافى لـ «العروة الوثقى»، ومقالات «الثأر»، كان التركيز الأساسى على قضية فلسطين، وضرورة إزالة دولة إسرائيل، وأهمية تحقيق الوحدة العربية من أجل استعادة فلسطين. وكان هذا الطرح يختلف مع طرح حزب البعث الذى كان يطالب بالاشتراكية إلى جانب الوحدة، وبدأت مناظرات ومجادلات بين الطرفين حول ضرورة التركيز على الوحدة وتأجيل الاشتراكية.

فى الخمسينيات، تخرج وديع حداد وجورج حبش طبيبين عامين، وليسا طبيب أسنان وطبيب عيون كما أشيع، وذهبا إلى الأردن حيث افتتحا عيادة مشتركة، كانت ـ عمليًّا ـ واجهة لنشاطهما السياسى، وفى الفترة الأولى اكتفى الطبيبان بتطبيب الناس مجانًا، وأحيانًا بدفع ثمن الدواء للمرضى؛ لكى يصبحوا من «الأنصار». وفى هذه الفترة دخل الأردن فى مرحلة توتر سياسى شديد بفعل تطورات شهدتها المنطقة: إعلان ضم الضفة الغربية لشرق الأردن رسميًّا، ثورة مصر، الدعوة لحلف بغداد، وشعار أيزنهاور عن ضرورة ملء الفراغ فى الشرق الأوسط «بحلف بغداد».. تفاعلت كل هذه العوامل ممهدة لنشاط سياسى نشط جدًّا ومتوتر جدًّا، وبدأ اسما حبش وحداد يبرزان من خلال تنظيمهما السياسى، ولعبا دورًا فى التظاهرات التى شهدها الأردن، وأدت إلى طرد غلوب باشا، وتشكيل سليمان النابلسى لحكومة وحدة وطنية.

وبعد فترة سقطت حكومة النابلسى، وجرت محاولة انقلابية فى أواسط الخمسينيات، واعتقل وديع حداد لأول مرة فى الأردن، وأرسل إلى سجن الجفر قرب معان فى الصحراء. وأثناء وجوده فى السجن، مارس حداد مهنته كطبيب للمساجين وللبدو المقيمين فى المنطقة. وفى السجن قام حداد بإعداد خطة للهرب، عن طريق حفر نفق. وفى يوم التنفيذ تسلل مع عدد من المعتقلين فى

النفق، وعند نهايته كان من المفترض أن تكون فى انتظارهم سيارة تقلهم إلى عمان، ولكنهم بدلاً من السيارة، فوجئوا بمدير السجن ينتظرهم، ويبادر بالقول: «مهمة السجين التفكير فى الهرب ومهمة مدير السجن إفشال العملية، وأنا أفشلتكم، ليعد كل إلى مكانه». وبعد فترة تم الإفراج عن حداد، وما لبث أن غادر الأردن بصحبة حبش إلى دمشق، وهناك قاما بتأسيس جريدة «الرأى» الناطقة باسم حركة «القوميين العرب»، فى حين كان تنظيم الحركة فى الأردن ينشط سرًّا، ويقوم أحيانًا بعمليات تفجير. وفى عام ١٩٥٨ وقعت الثورة فى لبنان وشاركت عناصر الحركة فيها، وكان وديع حداد يزودها بالسلاح، وكان قد أصبح عضوًا فى القيادة القومية التى تشكلت للحركة.

وفى أوائل الستينيات ومع بدء حركة فتح عملها انطلاقًا من الكويت عبر نشرة «فلسطين»، قامت حركة القوميين العرب بتأسيس «فرع فلسطين» ككيان مستقل وقائم بذاته، وكان وديع حداد على رأس هذا التنظيم، الذى ولد إثر نقاش فى الحركة حول العمل السياسى الفلسطينى المستقل والكفاح المسلح الفلسطينى. ومع قيام منظمة التحرير الفلسطينية فى العام ١٩٦٤، شارك وديع حداد فى المجلس الفلسطينى التأسيسى الأول فى القدس ممثلاً للحركة، ونشأ نوع من التحالف والتعاون الضمنى بين الحركة ومنظمة الشقيرى بسبب علاقات الطرفين بالنظام الناصرى.

قام وديع حداد بالإشراف على إنشاء تنظيم مسلح ومدرب تابع لحركة القوميين العرب، وأسندت إليه مهمة القيام بعمليات فدائية استطلاعية فقط، دون الاشتباك مع الجيش الإسرائيلى إلا فى حالة الدفاع عن النفس. وفى منتصف عام ١٩٦٤ حصل اشتباك مع إحدى مجموعات الاستطلاع، وسقط فيه الشهيد خالد، وذلك قبل أشهر من قيام فتح بأول عملية فدائية فى ١/١/١٩٦٥، ومازال الجدل مستمرًّا حول من بدأ العمل الفدائى أولاً.

وعندما شكلت فتح عامل ضغط على الشقيرى بسبب ممارستها الكفاح

المسلح، قرر الشقيرى تشكيل تنظيم فدائى، تابع لمنظمة التحرير، جاءت عناصره الأساسية من الفرقة الفلسطينية فى الجيش السورى، وحمل التنظيم اسم «أبطال العودة»، وانضم فيما بعد إلى الجبهة الشعبية، وكان وديع حداد مسئولاً عنه.. وبعد حرب ١٩٦٧ اختلف القوميون العرب مع عبد الناصر، وبدأ تيار اليسار يظهر فى الحركة، فأدى إلى تأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فى ١٩٦٨، وكان حداد من قيادتها. ومنذ الأيام الأولى كانت الجبهة تعدّ قضية فلسطين قضية صعبة، وأن الصهيونية العالمية تسيطر على الإعلام الدولى، وبالتالى لابد من القيام بعمليات نوعية للفت أنظار العالم، ولإيصال القضية الفلسطينية إليه، واختراق الحصار الإعلامى الصهيونى.

هنا بدأت مرحلة جديدة من حياة حداد هى مرحلة النضال الثورى الأممى، ومنذ البداية انطلق حداد مرتكزًا إلى ثلاثة مبادئ أساسية:

١ ـ ضرورة استخدام عناصر مدربة تدريبًا جيدًا جدّا، وضرورة اعتماد السرية والانضباط الكاملين فى تنفيذ العمليات.

٢ ـ تدويل العمليات الثورية بالاستعانة بعناصر من جنسيات مختلفة، فكان بذلك أول من أطلق الثورية العالمية، فاتحًا المعسكرات الفلسطينية، أمام ثوار من العالم كله: يابانيون، ألمان، فرنسيون، إيطاليون، أتراك، أرمن، أميركيون، لاتينيون.

٣ ـ استخدام العنصر النسائى المدرب تدريبًا جيدًا، وكانت أبرز المناضلات فى هذا المجال «ليلى خالد» إلى جانب الكثير من الأوروبيات الأجنبيات، اللواتى أسهمن بشكل فعال فى تنظيم حداد فى العمليات التى هزت العالم.

هذه العمليات النوعية انطلقت بقيادة وديع حداد المسئول عن العمليات الخارجية فى الجبهة، وتجسدت أول ما تجسدت فى عمليات خطف الطائرات. فكانت أول عملية خطف لطائرة العال الإسرائيلية إلى الجزائر، بقيادة يوسف رجب الغزواى، الذى أصبح سفيرًا للمنظمة فى بكين. ثم توالت العمليات حتى نهاية

١٩٧١؛ أى بعد حوالى سنة من خروج الفلسطينيين من الأردن، فكانت الانطلاقة الدولية لوديع حداد، وبداية مرحلة «الثورية الأممية»، ولعل أبرز العمليات التى خطط لها وديع حداد وهزت العالم، وهى عملية خطف ثلاث طائرات فى يوم واحد فى أوائل سبتمبر ١٩٧١، واستقدامها إلى مطار قديم فى مدينة الزرقاء الأردنية بعد السيطرة عليه، وسمى آنذاك «مطار الثورة»، وربما أدت هذه العمليات إلى ما بات يعرف بـ «أيلول الأسود» ونهاية الوجود الفلسطينى المسلح فى الأردن، إلا أنها كانت فى الوقت ذاته بداية مرحلة جديدة فى حياة وديع حداد بشكل خاص.. وديع حداد الثورى العالمى فى معايير تلك الفترة، والإرهابى الأول فى معايير هذه الأيام.

وبفعل عمليات حداد هذه، أصبحت الجبهة الشعبية معروفة على نطاق عالمى واسع، وباتت لها علاقات جيدة بالعديد من الأطراف العربية والدولية، وخصوصًا فى المعسكر الشيوعى، وبات لها دخل مالى جيد، كما باتت تلعب دورًا عالميًّا فى استقطاب التنظيمات الثورية فى العالم من «بادر ماينهوف» إلى «الخلايا الثورية» إلى «الجيش الأحمر» اليابانى إلى «ثوار» أميركا اللاتينية، الذين كان من بينهم الفنزويلى إيلتيس سانشير، الذى حمل عشرات الأسماء من خليل إلى سالم إلى كارلوس (الثعلب) أشهر وأخطر إرهابى فى العالم.

كل هذه التنظيمات بدأت منذ أواخر الستينيات تتصل بالجبهة الشعبية، وتحديدًا قسم العمليات الخارجية فيها بإشراف وديع حداد، ولهذا كان ارتباط جميع هؤلاء بالدكتور ديع حداد بحكم علاقاته وموقعه وشخصيته القيادية وكفاءاته فى العمل السرى والتخطيط للعمليات الدولية؛ بحيث أصبح الزعيم الدولى غير المنافس لكل هذه التنظيمات والعناصر.. وقد تعزز موقع حداد هذا أكثر بعد عام ١٩٧١، عندما اتخذت الجبهة الشعبية قرارًا بالتخلى عن عمليات خطف الطائرات والعمليات الخارجية، ورفض حداد قرار حبش هذا؛ مما أدى إلى الانشقاق

بتنظيم مستقل، خصصه حداد للعمليات الخارجية باسم «ذراع الثورة العربية». ويبدو أن هذا الانشقاق قد تم وديـاً، وكان عبارة عن طلاق ودى بين حبش وحداد؛ إذ لم ترافقه أية حملات ولا أية بيانات إدانة وتنديد.

وبالطبع كان كارلوس قد التحق بالجبهة الشعبية قبل انشقاقها، وكان ذلك فى عام ١٩٦٩ عندما خرج من جامعة باتريس لومومبا فى موسكو، ودق على باب «بسام أبو شريف»، الذى كان يومها مساعداً لغسان كنفانى فى رئاسة تحرير «الهدف». وبعد التأكد من إخلاصه وتدريبه فى معسكرات الأردن، بدأت «كفاءات» كارلوس تلفت نظر وديع حداد، فقرر الاعتماد عليه فى مهمات خارجية خاصة، شكلت تحولاً فى حياة كارلوس، وكانت أبرزها وأشهرها عملية فيينا عام ١٩٧٥. وكلها عمليات من تدبير وتخطيط وديع حداد.. وذلك على الرغم من تناقض شخصيتى الأستاذ والتلميذ. خصوصًا مـن جهة حرص الأول على العمل السرى والصامت والحياة البسيطة البعيدة عن الأضـواء، وهوس الثانى بالاستعراضية والحياة الصاخبة والكحـول والنساء والأناقة، ويقال: إن «أبو شريف» بذل جهودًا مضنية فى البداية لإقناع حداد بتبنى كارلوس وتجاوز طبعه الاستعراضى.

والذين يعرفون خفايا تلك المرحلة من أجهزة استخبارات إلى مسئولين كبار ومعاصرين لكل الأطراف، يدركون جيدًا أن الأسطورة الحقيقية كانت وديع حداد وليس كارلوس. والذين عرفوا وديع حداد منذ الأيام الأولى لحركة القوميين العرب، يجمعون على أن الدكتور وديع كان مثالاً للشخص البسيط والإنسان العادى. ومنذ بداياته تميز حداد بنبذه حتى الكراهية للجدل الأيديولوجى أو التنظير السياسى؛ فلم يكن يشارك فى الاجتماعات الحزبية المطولة، وكان يكرس وقته للشئون التنظيمية والميدانية اليومية؛ حتى إن كثيرين فوجئوا بتسلمه قسم العمليات الخارجية، وفوجئوا بكفاءاته النادرة فى التخطيط لمثل هذه العمليات، وببرودة أعصابه وبقدرته على العيش معزولاً، والتخفى لأشهر وسنوات دون أن يظهر عليه أى انزعاج.

وصفة البساطة هذه لازمته، حتى بعد أن حقق للثورة الآلاف بل الملايين من الدولارات.. ظل يعيش حياة عادية هو وعائلته، التى كانت تسكن شقة عادية جداً بالإيجار فى محلة رمل الظريف قرب شارع الحمراء فى بيروت، وهى الشقة التى هاجمته فيها إسرائيل في ١٩٧٥ بإطلاق عدة صواريخ موجهة من مبنى مقابل فى محاولة لاغتياله، فشلت مثلما فشلت كل المحاولات التى وضع فيها الموساد الإسرائيلى كل طاقاته لمطاردة وديع واغتياله أكثر من مرة.

ويبدو أن نمط العيش هذا لدى حداد لعب دوراً فى إفشال كل محاولات اغتيال الرجل وتغذية أسطورته، فكان من المستحيل تعقب رجل غير معروف بأية عادة.. لا يسهر ولا يشرب ولا يرتاد أمكنة معينة، ولا يعاشر أصدقاء معينين، ولا يهتم بشيء خاص حتى بالمال. وثمة عامل آخر وأهم فى بناء أسطورة حداد، هو تبنيه بشكل لا سابق له أسلوب التنكر والتخفى؛ فليس فقط لم يكن هناك من يعرف أين يسكن وأين ينام، بل لم يكن أحد يعرف صورته. صورته الحقيقية لم تلتقط إلا مرة واحدة، ولكن صوره الأخرى كانت لا تعد ولا تحصى. مرة يظهر فى ثياب راهب، وأخرى يعود صديقه ورفيق النضال جورج حبش فى مستشفى الجامعة الأميركية فى بيروت فى زى امرأة، ويوقع فى سجل الزوار باسم وديعة «شقيقته». وكان وديع دقيقًا جداً فى تنفيذ فن التنكر وإتقانه، والدليل أنه غالبًا ما كان يستقل طيران «العال» الإسرائيلى فى رحلاته، دون أن يثير الشبهات. ويذكر الكثير من أصدقائه أنهم كانوا يشاهدونه فى الطريق أو فى لقاء أو سهرة، فلا يتعرفون عليه رغم معرفتهم الوطيدة به، ويبدو أن أمراً واحداً كاد يفضح حداد ويكشف هويته لعارفيه، وهو لهجته الفلسطينية الخاصة جداً.

ومن المعروف أن حداد كان يعتمد التنكر جزءاً من العمل النضالى، فكان ينصح به عناصره المهددين؛ حتى إنه نصح مرة كارلوس بعد أن أصبح مطارداً فى العالم كله بالذهاب إلى سويسرا؛ لإجراء عملية تجميل. ويبدو أن بعض رفاق كارلوس سخروا منه يومها قائلين: إنه إذا ذهب كارلوس إلى سويسرا، فإنه سيطلب فقط إجراء عملية جراحية لتصغير «ثدييه» اللذينْ كانا يشكلان عقدة له.

وعندما اشتدت المطاردة الإسرائيلية والدولية لوديع حداد، أصبح يركز ـ إلى جانب التنكر ـ على إجراءات الحيطة والحذر؛ فكان يفضل الإقامة فى دول، يعدّها آمنة جدًا من اليمن إلى الجزائر إلى دول أوروبية شرقية، مع الحرص على اتخاذ كل الإجراءات الأمنية. كان مثلاً يحرص على حجز كل الغرف المجاورة لغرفته، وفى الطابقين السفلى والعلوى، وكان يحرص على التدقيق فى فراشه كل ليلة، وأكثر من ذلك كان وديع حداد مصرًا فى هذه المرحلة على رفض تناول الطعام أو أى مشروب أينما ذهب. ولكن يبدو أن كل هذه الاحتياطات والإجراءات لم تنفع عندما جاءت ساعة وديع حداد؛ فعندما توفى فى عام ١٩٧٨ فى الجزائر، ونقل جثمانه إلى بغداد ليدفن فى جنازة حاشدة كانت الأخبار والمعلومات تؤكد على أن هذا الزعيم الفلسطينى قد سقط بعد أشهر من الصراع المرير مع مرض عضال فى الدم.

ولكن أخبارًا أخرى، ومن بينها معلومات فرنسية كانت مطلعة على مرض حداد، لكون معظم فحوصاته كانت تنقل إلى مختبرات فرنسية، ومازالت حتى الآن تتداول قصة أخرى عن وفاة وديع حداد، مؤكدة أن الرجل كان ضحية تسمم بطىء يصعب كشفه، تغلغل إلى جسده رويدًا رويدًا، خلال أكثر من سنة إلى درجة أنه فى آخر أيامه كان ينزف فى شكل غريب، دمًا من كل شعرة فى جسده، ويقول مقربون من حداد: إنه كان يردد فى آخر أيامه قصة غريبة حصلت معه فى عام ١٩٧٦، عندما دعى إلى حفل فى منزل إحدى الشخصيات العربية المقيمة فى بغداد. وهناك خرج وديع حداد عن عادته، وارتشف قليلاً من فنجان القهوة، وحتى آخر أيامه كان حداد يقول: «غريب.. لقد بدأ إحساسى بالمرض منذ احتسائى القهوة فى منزل ذلك الإنسان». وفى التفسيرات والتحليلات يذهب بعض الخبراء إلى توجيه أصابع الاتهام إلى المخابرات السوفياتية، التى وصلت إلى مرحلة انزعاج قصوى من أسطورة وديع حداد، ففعلت به ما عجزت المخابرات الإسرائيلية ومخابرات الدول العدوة الأخرى عن فعله.

وبوفاة حداد «الأستاذ» أصبح كارلوس يتيمًا. فهو وحده الذى كان قادرًا على

التخطيط لكارلوس، وإدارته فى شكل ناجح وحتى كارلوس كان مقتنعًا بأن لا أستاذ سوى وديع حداد، ولذلك تحول بسرعة إلى أستاذ نفسه بعد وفاة حداد، والأرجح بعد مرضه، حيث أنشأ كارلوس تنظيمه الخاص، وبات يقوم بعملياته الخاصة به. ولكن بعض العارفين بخفايا تلك الفترة ـ ومنهم الأستاذ بسام أبو شريف ـ يعدّ أن القطيعة بين كارلوس ووديع حداد بدأت فى عام ١٩٧٦، وتحديدًا بعد عملية احتجاز ١١ وزيرًا للأوبك فى فيينا فى ٢١ ديسمبر ١٩٧٥؛ فالذى أعد هذه العملية وخططها واختار كارلوس لقيادتها هو وديع حداد. لكن أشهر عملية فى تاريخ النضال الفلسطينى الخارجى اعتبرها وديع حداد «فاشلة»، وثارت يومها ثائرته على كارلوس، متهمًا إيّاه بأنه لم يتبع تعليماته بحذافيرها، ولم يحقق ما كان يمكن تحقيقه من مطالب من دول الوزراء المخطوفين، ولم يعرف المفاوضة كما يجب. وعدّ حداد أن كارلوس تمرد على تعليماته أثناء هذه العملية، وأسوأ من ذلك تعامل بأسلوب استعراضى مناقض تمامًا لمبادئ حداد، وفى جلسة المناقشة الطويلة التى تلت العملية فى أحد معسكرات اليمن، صاح حداد فى وجه كارلوس قائلاً: «لقد خذلتنى.. لم تتبع تعليماتى.. لا مكان للنجوم فى تنظيمنا». ويقال: إن حداد أبلغ كارلوس فى تلك الجلسة أنه أقصاه عن التنظيم.

ولكن بالنسبة لكارلوس، كانت عملية فيينا بداية الشهرة والنجومية وانطلاقة أسطورة أشهر وأخطر «إرهابى» أو «ثورى» فى العالم، وفيما بدأت أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية والغربية حملة مطاردة مكثفة لأشهر إرهابى، بدأ كارلوس يقطف ثمار كونه «أشهر ثورى» و«بطل فلسطينى» فراحت الدعوات من كبار المسئولين السياسيين العرب تنهمر عليه، وزراء يدعونه للعشاء، ورؤساء يضعون طائراتهم الخاصة تحت تصرفه، ويقيمون له بيوت الضيافة، وأجهزة استخبارية عربية وأوروبية شرقية تسعى لطلب ودّه واستضافته. وتعددت ارتباطات كارلوس بهذه العاصمة أو تلك، سواء فى بعض الدول العربية أم الأوروبية الشرقية. ودون أن يدرى وجد نفسه ضحية أسطورته ونجوميته ورهينة هذه الدولة أو ذلك الجهاز، فراحوا يستخدمونه لأهداف لا علاقة لها بالثورة

الفلسطينية، أو حتى الثورة الأممية، بل إنه تحول إلى «بندقية برسم الإيجار».. دون أن يتوقع، مثله مثل كبار الخبراء والمراقبين أن القضية الفلسطينية ستنتقل من منطق الثورة إلى منطق الدولة.

* * وهناك أخبار تتسرب منذ عام ١٩٩٦ عن قرب اعتزال جورج حبش للعمل السياسى باستقالته المتوقعة من قيادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.. وقد تجددت أخبار الاعتزال فى أوائل عام ١٩٩٨؛ الأمر الذى يشير إلى أن الاعتزال سيتخذ هذه المرة شكلاً معلنًا ونهائيًّا فى ما يبدو، حيث سيعهد حبش بالقيادة إلى السيد «أبو على مصطفى»، والذى يشغل موقع الأمين العام المساعد منذ سنوات عديدة.

ويبدو أن تأخير الإعلان الرسمى للاعتزال يعود إلى أسباب داخلية، تعود إلى رغبة «الحكيم» فى الاطمئنان على الوضع الداخلى للجبهة قبل الانسحاب، وربما تكون هناك أسباب أخرى ذات طبيعة سيكولوجية، تتعلق بتردد الرجل وتهيبه من لحظة الاعتزال الصعبة، وهو المناضل والسياسى المحترف منذ مطلع شبابه.. كما أنه ليس خطأ الافتراض بأن الرجل لا يزال يراهن على تغيرات معينة فى مسار الأحداث الفلسطينية، تعيد وضعه فى قلب الأحداث، وربما كان التعثر الواضح لعملية التسوية هو الخلفية المحتملة لرهانات من هذا النوع.

وعلى أية حال.. فإنه يبقى للدكتور حبش وفى كل الأحوال مكانته المميزة لدى الشعب الفلسطينى وللحركة العربية ـ التقدمية بشكل عام.. نظرًا لنزاهة الرجل ونظافته حيث لم يرتبط اسمه بأى نوع من الفساد طيلة السنوات الطويلة المديدة، التى عاشها قائدًا ومناضلاً.. كما أن هناك إجماعًا وطنيًّا فلسطينيًّا أن «الحكيم» ضمير الشعب الفلسطينى الأول، وأنه فى الترتيب القيادى يحتل المكانة الثانية بعد الرئيس عرفات، وإن كان ذلك على المستوى المعنوى.

وعلى الرغم من ذلك.. فإنه يمكن القول بأن الرجل ينتهى نهاية مأسوية مشبعة بالخيبة والرهانات الخاسرة، ومأساته فى الحقيقة هى مأساة اليسار

الفلسطينى كله بشكل عام، والذى انكشف نهائيًا بعد انهيار الاتحاد السوفياتى ودول المنظومة الاشتراكية، فى حين استطاع اليمين البراجماتى (التجريبى) فى «فتح» أن يستمر بشكل أو بآخر.

والحقيقة أن حبش كان على الدوام أسير أيديولوجية ما، فهو ابتدأ قوميًا عربيًا ثم التحق بصفوف الناصرية حتى هزيمة يونيو ١٩٦٧، لينتهى ماركسيًا لينينيًا على الطريقة الفلسطينية، على رأس قيادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

وبهذا يكون أحد عوامل خيبته هو سقوط الأيديولوجيات السياسية والحزبية جميعها منذ انهيار السوفيات، وحتى الآن، بحيث بات وكأنه لم يعد هناك مكان لأية أيديولوجيات باستثناء الدينية.

*** خطة اغتيال السادات:**

ولكن هل شارك الإرهابى العالمى كارلوس فى الإعداد لاغتيال الرئيس أنور السادات؟ وهل كشفت التحقيقات معه أسماء زعماء، وربما دول تأمروا ضد السادات؟

السؤالان طرحا بعد فتح الملفات السرية للمخابرات الألمانية الشرقية ستاسى، والتى دعمت ودربت ومولت وآوت الإرهاب الدولى حتى سقوط النظام الشيوعى؛ فقد أشارت وثيقة سرية، نشرتها صحيفة لوفيجارو الفرنسية أن المخابرات الألمانية الشرقية كانت على علم بأن الإرهابى كارلوس جاء لبرلين الشرقية فى مارس ١٩٧٩، خلال مفاوضات السلام فى كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل، والتى تمت بمباركة الولايات المتحدة. أعد الوثيقة الجنرال إيرمين مساعد وزير الأمن فى المانيا الشرقية، ورفعها لوزير الأمن إيريك ميلكى، وتم مناقشتها فى المكتب السياسى بحضور مستشار المانيا الشرقية إيريك هونيكر حددت الوثيقة قائمة الأولويات والأهداف السياسية لجماعة كارلوس الإرهابية، وأسماء شخصيات قام الإرهابى وأعوانه بالاتصال بهم فى برلين الشرقية وعواصم

أخرى، ومن بين هذه الأهداف اغتيال شخصيات تساند السياسة الإمبريالية الأمريكية والصهيونية وزمرة السادات.

كانت اتفاقية السلام التى وقعها السادات وبيجين رئيس وزراء إسرائيل، واعتمدت رسميًا فى ٢٧ مارس ١٩٧٩، محور استراتيجية كارلوس، وبرر رفض منظمة التحرير الفلسطينية لها القيام بأعمال إرهابية. تقول الوثيقة: إن كارلوس وصل إلى برلين الشرقية بجواز سفر دبلوماسى رقم ١٢٧٨ صادر من الجمهورية اليمنية الشعبية، باسم أحمد عادل فواز، ضيفًا على السكرتير الأول لسفارة اليمن كمال حسن.. التقى كارلوس فى ـ نهاية مارس ـ وبداية إبريل ١٩٧٩ فى برلين الشرقية بعدد من العرب، قدموا خصيصًا للقائه بينهم العراقى عدنان شطوب، الذى أقام شهرًا فى ألمانيا الشرقية ضيفًا على السفارة العراقية تحت اسم دى ـ ايرجهام، والمخابرات الألمانية الشرقية كانت على علم بقيامه بتنظيم عمليات إرهاب لصالح الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. كما التقى كارلوس بـ «أحمد أبو صالح الحمدانى»، الصحفى بمجلة الآفاق العربية، ويحمل جواز سفر دبلوماسى عراقى، ولكنه ـ فى الواقع وطبقًا للوثيقة السرية ـ وزير سورى سابق. عرض الحمدانى تقديم مساعدة ومساندة مادية لاثنين من المصريين، قدما نفسيهما على أنهما من معارضى السادات، كما التقى كارلوس أيضًا بأبى هشام، وهو عضو فى مخابرات منظمة فتح، وله صلات بالإمام الخمينى، الذى كان لايزال فى باريس فى المنفى.

فى انتقال السادات من الحرب إلى اللاحرب، ومن موسكو إلى واشنطن ومن محاربة إسرائيل للصلح معها، استفز ذلك بعض الدول العربية ومخابرات الدول الشيوعية.. ولأن موسكو خشيت التورط فقد فتحت مخابرات ألمانيا الشرقية أبوابها لمندوبين عرب، يمثلون حكام هذه الدول. وناقش مدير المخابرات الألمانية الجنرال إيرمين معهم أكثر من خطة لقتل السادات، وحسب مانشرت صحيفة «فيجارو» فيما بعد فإن الجنرال إيرمين استقر على خطة واحدة وجدها مناسبة،

ورفعها إلى رئيسه إيريك ميلكى، الذى رفعها بدوره للمكتب السياسى لمناقشتها بحضور الرئيس الألمانى إيريك هونيكر فى ذلك الوقت.. وقد وقع الاختيار على كارلوس لتنفيذ الخطة.. وقالت المصادر الصحفية الفرنسية التى نشرت التفاصيل أن دول الرفض العربية رصدت ثمنًا لرأس السادات ٥٠٠ مليون دولار.. ولم يكن السادات وحده المطلوب اغتياله، بل كانت هناك شخصيات عربية أخرى، منهم كتاب وسفراء ووزراء عرب يساندون السياسة الإمبريالية الأمريكية والصهيونية على حد ماجاء فى الوثائق الألمانية، التى كشفت مؤخرًا، وأضيفت إلى ملفات الادعاء فى محاكمة كارلوس.

فى كتابه «السادات الحقيقة والأسطورة» يذكر موسى صبرى أنه بعد مبادرة السلام، نشطت جبهة الرفض «سوريا والعراق وليبيا واليمن الجنوبية» وبعض المنظمات الفلسطينية المتطرفة، والأجنحة المتشددة فى فتح فى عمليات التخريب ومؤامرات الاغتيال. وتجمعت لدى أجهزة الأمن فى مصر معلومات عن اتصالات بين الاتجاهات المتطرفة وبين منظمة إرهابية دولية.. مثل: مجموعات كارلوس، وتنظيم الألوية الحمراء، وقامت جهات الأمن فى مصر بضبط ٣٨ حالة (محاولة اغتيال ـ تخريب ـ قلب نظام الحكم) منها ٨ منظمات شيوعية، و١١ محاولة ليبية، و٩ محاولات من دول الرفض، و٩ منظمات دينية متطرفة، وحالة إيرانية.

١٤ جهة كانت تسعى لاغتيال السادات.. وكان كارلوس يقف وراء خمس منها، وحسب ماكشفته الصحافة الفرنسية مؤخرًا فإن كارلوس كان المسئول عن وضع خطة السادات فى فيينا، الذى كان مقررًا أن يزورها، وهو فى طريق عودته من واشنطن إلى القاهرة فى آخر زيارة قام بها للولايات المتحدة الأمريكية.. وكان رأى كارلوس أن النمسا بلد مفتوح لايضع قيودًا على الداخلين والخارجين، كما أنه البلد الذى نفذ فيه أشهر عملياته وخرج منه بـ ١١ وزيرًا نفطيًّا فى عملية الأوبك.. وقد اختار كارلوس بعض الفلسطينيين المتشددين لتنفيذ عملية الاغتيال، وقد ضبطوا، وضبطت الأسلحة التى هربوها فى حقائب دبلوماسية.

وتجمعت التفاصيل أمام المخابرات النمساوية، فرفعتها فى تقرير عاجل إلى المستشار د. برونو كرايسكى، الذى قرر إبلاغها لمصر قبل موعد الزيارة بأسبوعين. ولم يختر د. كرايسكى القنوات الدبلوماسية، وفضّل أن تصل معلوماته إلى القاهرة، من خلال الدكتور السمان مدير مكتب رئيس الوزراء للشئون الأوروبية (ثم أصبح المسئول عن الحوار الإسلامى المسيحى)، والذى تربطه به صداقة قديمة، وقال له: «لدينا معلومات عن محاولات عناصر عربية متطرفة لاغتيال السادات أثناء زيارته للنمسا بعد واشنطن.. وإننى أفضل عدم استخدام القنوات الرسمية؛ حتى لا يتضخم الموضوع، وأود أن أوفق بين واجبى فى تنبيه السادات للخطر، وبين رغبتى فى ألا يعدل السادات عن زيارته للنمسا لأهمية التشاور بيننا بعد مباحثاته فى أمريكا». وبحسب ما ذكره موسى صبرى فى كتابه.. فإن على السمان اتصل بالجهات المسئولة، وأخطرها بما علمه من كرايسكى، ولكن المستشار كرايسكى اتصل بالدكتور السمان بعد أسبوع، وقال له: إن الموضوع أصبح أكثر تعقيدًا!!

وطلب كرايسكى من وزير الداخلية النمساوى أن يفيده بما لديه من معلومات؛ فتبين أن هناك خطة وضعها كارلوس لاغتيال السادات، وحامت الشبهات حول عناصر أخرى، كانت تدفعها ليبيا للقيام بمحاولة مستقلة للقيام بالغرض نفسه، وأغلب الظن أن الذى كشف هذه المعلومات للسلطات النمساوية، هو عصام السرطاوى، ممثل عرفات فى أوروبا، الذى كان يؤمن بأن التطرف الإرهابى الفلسطينى فى أوروبا يخدم فى نهاية المطاف، التطرف الإسرائيلى. وغادر د. السمان فيينا إلى باريس، والتقى هناك بعصام السرطاوى، الذى أبلغه أن هناك مخططاً ثالثًا تدفعه عناصر تعمل مع سوريا لاغتيال السادات، عند وصوله إلى سالزبورج.. وبعث د. السمان بكل هذه المعلومات إلى رئاسة الجمهورية فى القاهرة، وكان ذلك بعد وصول السادات إلى واشنطن.. وسجل رأيه الشخصى بأن هذه الظروف تقتضى إلغاء الزيارة.. وقد ألغيت الزيارة بالفعل، وفيما بعد قتل عصام السرطاوى فى لشبونة بدلاً من السادات!

*** أنا مسلم وخذلنى العرب!!:**

* * فى حديث صحفى للسيد كارلوس أجرى معه فى باريس، قبيل محاكمته فى ديسمبر ١٩٧٩، وفى حضور محاميته «إيزابيل كوتان بيير» (كانت أيضًا محامية زوجته السابقة ماجدالينا كوب فى عام ١٩٨٢ ـ ولها مكتب آخر فى أبيدجان بساحل العاج):

* لقد ولدت فى فنزويلا بأميركا اللاتينية، فما الذى دفعك إلى تأييد قضية الشعب الفلسطينى، وخصوصًا الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين؟

* لقد حضرت إلى لندن مع أمى، والتقيت فى مدرسة تعلم الإنكليزية مع بعض الفلسطينيين، الذين شرحوا لى القضية الفلسطينية، وتحمست لها، وقررت الانخراط فى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. إن الجبهة كانت من أهم المنظمات التقدمية الفلسطينية على الساحة، ولاسيما عبر وجود أحد قادتها وديع حداد. انضممت إلى الجبهة فى عام ١٩٧١، ولقد رفضوا فى البداية الاعتراف بإسرائيل!!.. إننى مقاتل من أجل الشيوعية والثورة العالمية، وأنا أعدّ نفسى سجينًا سياسيًّا. ولدت فى فنزويلا ثم ذهبت إلى أوروبا مع أمى، وبمحض المصادفة تعرفت القضية الفلسطينية. وأعتبر أن القضية الفلسطينية هى السبيل لتطوير الثورة العالمية؛ لأنها نوع من المقاومة ضد الاستعمار والإمبريالية والظلم. إن الشعب الفلسطينى طرد من بلاده، وتم خلق إسرائيل مكانها، ولهذا أعدّ نضال الشعب الفلسطينى هو مثال لنضال الشعوب لنيل استقلالها.

* إذًا أنت لا تؤيد العملية السلمية الحالية واتفاقية أوسلو؟

* لا أعتقد أنها ستستمر، وأن هذه العملية ستموت بعد انهيارها.

* لماذا لا يهتم بك العرب، ولا ينقلون إلا ما تذكره وكالات الإعلام الغربية عن أنك إرهابى قاتل؟

* إن وكالة الصحافة الفرنسية تابعة للدولة الفرنسية، والشيء نفسه يحدث لروجيه جارودى، والصحافة الفرنسية منحازة ضدى، والمحاكمة لم تكن عادلة.

* ولكن بعض العرب يعتقدون أن القضاء الفرنسى هو قمة العدالة؟

* نعم نعم.. مثلاً جاء المحامى اللبنانى هانى سليمان ومحامية فنزويلية لمساعدتنا فى المحكمة، وقالت لى: إنها قرأت فى المدرسة أن فرنسا هى أم حقوق الإنسان، ولكن بعد انتهاء المحاكمة والمهزلة قالت: إنها ستشرح فى أميركا اللاتينية مهزلة القضاء الفرنسى، وهناك فرق بين النظرية والواقع.

* لقد صرخت الله أكبر فى المحكمة، لماذا وأنت إنسان تقول عن نفسك: إنك ثورى ماركسى لينينى؟!

* إننى مسلم منذ عام ١٩٩١ فى دمشق، ولقد مررت على الأردن وليبيا. وأصبحت مسلمًا لأننى أرى الإسلام دين الروحانية فى عصر المادية السائدة، وثانيًا إننى متأكد أن الإسلام هو الطريق الوحيد للثورة العالمية؛ لأن الإسلام يختلف عن الديانات الأخرى: مثل: الكاثوليكية وغيرها، وهذه الأديان هى أديان ميتة. إن الإسلام دين ديناميكى لأسباب عديدة، ولديه أهداف سياسية مرتبطة بالدين، ولا يمكن فصل الدين عن الدولة.

* هل تدعم الثورة الإسلامية فى الجزائر مثلاً؟

* الوضع فى الجزائر مختلف، ولكن الثورة الإسلامية فى عدة أقطار، نراها تحقق مكاسب للمسلمين.

* هناك مرحلة إقامتك فى سوريا، ومازال الغموض يكتنفها؟

* لا أريد أن أتحدث بالتفاصيل عن هذه المرحلة، ولكن بعد حرب الخليج وموافقة الأسد على التحالف مع الرئيس الأميركى بوش ضد العراق، ومعارضة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين هذا الخط، فإن الأسد أمر بإلقاء

القبض على عديد من نشطاء الجبهة، ولكن الصفقة التى تمت لتسليمى إلى الفرنسيين تمت بين أميركا وإسرائيل و«الفاتح عروة»، الذى كان مسئولاً فى عهد النميرى، وهو الذى رتب نقل الفلاشا إلى إسرائيل فى السودان فى عام ١٩٨٥. ولقد قام «ثرى خليجى» بتمويل العملية؟!.. إن الفاتح عروة كان مساعدًا للرئيس السابق جعفر النميرى، وكان فى الوقت نفسه يعمل للمخابرات الأميركية، وهو الذى قام بعملية اختطافى.

* من الفرنسى الذى كان وراء اختطافك فى عام ١٩٩٤؟

* بالطبع وزير الداخلية الفرنسى باسكوا، الذى كان متحالفًا مع بالادور، وكان يحاول تعزيز مركزه لانتخابات الرئاسة.

* لقد قال الرئيس السودانى عمر البشير فى مقابلة صحفية: إنه عندما اكتشف أن كارلوس له سجل إجرامى سلمه للفرنسيين.

* إن كلامه غير صحيح. لقد تمت الصفقة مع حسن الترابى فى عام ١٩٩٤. ولقد أكد ذلك الترابى نفسه، لقد كان اسمى على بركات، وأحمل جوازًا يمنيًّا ديبلوماسيًّا. ألم يخبرك الرئيس السودانى عمر البشير، أننى كنت مستشارًا لوزارة الدفاع السودانية، ولقد باعنى مقابل ٥٠ مليون دولار؟! ولقد ذكر الترابى أنه لا يمكن أن يقبل بالسودان كل المسلمين سوى الذين يتكلمون العربية، وناقض نفسه عندما قال: إننى مجرم، ولم أكن مختبئًا بل كنت مستشارًا علنيًا فى وزارة الدفاع السودانية.

* هل أغضبت حسن الترابى بشىء ما؟

* إن القضية هى قضية مال.. لقد ضغطوا على الترابى.

* من؟

* أميركا وإسرائيل، ثم أعطوه المال.

* هل لديك أية أدلة؟

* إن الفاتح عروة وبعد تسليمى إلى فرنسا، عين سفيراً فى واشنطن كمكافأة له.

* ماذا عن فترة إقامتك فى ليبيا؟

* لم يحن وقت الكلام عن ذلك.

* لماذا لم يستقبلك أى نظام عربى؟! وماذا عن وصف رئيس الستازى «وولف» لك بأنك زير نساء؟

* إن هناك حملة لتدمير سمعتى. إننى لا أفكر لنفسى بل ضمن مجموعة مقاتلة، إن المخابرات الأميركية تحاول تدمير سمعتى؛ لاننى كنت مقاتلاً عالميـًا. مثلاً قيل عنى: إننى رجل سكير، ولكن الواقع أننى لا يمكن أن أشرب الكحول؛ لأننى مصاب بالقرحة فى معدتى. ولقد صوروا أن لدى صناديق ويسكى، ولكن هذه حملة لتدميرى. وإننى مسلم ولا يسمح فى الإسلام بتعاطى الخمور والمسكرات.

* هل تشعر بالندم لاغتيالك ميشال مغربل والفرنسيين؟

* لا. لأننى برىء، وأن المحاكمة كانت تلبية لمطالب أميركية وإسرائيلية. ولم يقدموا فى المحكمة أية إثباتات. ولقد طالبت فرنسا بأن تقيد التحقيقات فى حادثة توليبه، التى قام بها عملاء الموساد لإحراج الفلسطينيين لدى فرنسا.. كل الصحف الغربية تركز على الضحايا، ولكن فى كل المعسكرات فى الحرب.. هناك ضحايا. والموساد قتلت عديداً من الفلسطينيين فى باريس.

* من قتل ميشال مغربل إذن؟

* لا أعرف ولا يوجد أى إثبات أننى قتلته. وحتى الرسالة التى قالوا إنها رسالة تهديد منى، لم تكن بخط يدى ولم تكن حتى رسالة أصلية بل مفبركة، وأتحداهم أن يثبتوا أنها أصلية، ولم يكن هناك أى شاهد.. وفى ٢٨ يونيو ١٩٧٥ خرجت القصة أن كارلوس قتل مغربل، ولم يحتفظوا بأية دلائل. أنا

متأكد أن هناك من يسيطر على العملية كلها، وأن هناك صفقة مع الموساد، وأكد ذلك «أوستروفسكى» فى كتابه.

* لكن أوستروفسكى لا مصداقية له، وهو رجل كاذب، ونشر كتابه فى كندا لأجل المال؟

* إن جزءًا من الكتاب فيه بعض الصحة. ولماذا؟ أوستروفسكى كعميل سابق للموساد، تحدث عن تورط الموساد فى عملية قتل مغربل، ونعرف فى الجبهة الشعبية أن ميشال مغربل التقى بعملاء الموساد فى لندن فى عام ١٩٧٣ وحصل على المال منهم، وكان المستر «هيرانت» المسئول عن التحقيقات، وكان مواليًا للعرب، ولكنه توفى. والسؤال: لماذا لم يجر إطلاعه على كل التفاصيل التى أخفاها أحدهم فى وزارة الداخلية الفرنسية؛ أى أنه كان ضحية هو نفسه.

كما أن جزءًا كبيرًا من ملفات التحقيق مفقود، وخصوصًا ما قبل ٢٧ يونيو عام ١٩٧٥؛ لأن مغربل ألقى القبض عليه فى ١٣ يونيو. ومابين ١٣ و٢٧ لايوجد أى شىء حول اعتقاله أو اعترافاته، ولقد كان «دومارانش» مدير D.S.T، ولقد كتبت «باسكال كروب» كتابًا اسمه «تاريخ التجسس المضاد فى فرنسا»، صحيح أن بعض الحقائق الواردة غير صحيح. ولقد تورطت السى أى إى فى باريس بهذه المؤامرات، وفى الحكومة الفرنسية فى عام ١٩٧٥، كان هناك مسئولون ضد الفلسطينيين وضد التعاون معهم.

* هل كانت هناك أى علاقة فى عام ١٩٧٥ بأبى إياد والحادث؟

* معروف أن «أبا إياد» كانت له صلة بالمخابرات الفرنسية، وقد قتله الموساد فى عام ١٩٩٠.

* ماذا عن تفجير مجلة عربية فى عام ١٩٨٢، وقد اتهمت أنت بهذا التفجير؟

* قبل تفجير المجلة المذكورة، اعتقلت السلطات الفرنسية مسئولاً فى السفارة

السورية، ثم طردته، وحددت مسئوليته ببعث متفجرات فى مسجل «سونى» إلى المجلة. وبعد الانفجار الذى كان فى المحاولة الثانية، طردت بعض العاملين فى السفارة السورية فى باريس، وعندما تطرد دبلوماسيين.. فلابد أن تكون لديك الدلائل القاطعة.

* لماذا اتهموك إذًا؟

* إن فكرة إلقاء التهمة على كارلوس هى من اختراع القاضى بروجير؛ فأى تفجير يحدث فى فرنسا ينسبونه إلى كارلوس.

* يقول مؤلف بريطانى فى كتاب عنك إنك قاتل فاشل، فلم تقدر أن تقتل «ماركوس سيف» صاحب محل «ماركس آند سبنسر»، وأنت على بعد عدة أمتار منه.

* إن هذه المعلومات تعتمد على مقابلة منسوبة إلىَّ كذبا، ولقد فبركها الموساد الإسرائيلى؛ فقبل المحاكمة مؤخرًا، نشر التلفزيون الفرنسى مقابلة مع «بسام أبو شريف»، قال فيها: إن كارلوس أخبره أنه كان فى بيت سيف، فأصدرت بيانًا، وبعثت برسالة إلى الجامعة العربية والمؤتمر الإسلامى؛ لينظر فى ما قاله «بسام أبو شريف»، الذى كان ناطقًا باسم الجبهة الشعبية عن هذه الادعاءات، ولكنهم لم يردوا بأى شىء.

* ولكنك قابلت «بسام أبو شريف»؟

* نعم، أعرفه كعضو فى الجبهة الشعبية، وقد خان الجبهة الشعبية والتحق بعرفات، ولا علاقة لى بمحاولة اغتيال سيف.

* يقول وزير النفط السعودى السابق زكى اليمانى: إن كارلوس مجرم يستحق الإعدام لجرائمه، فما رد فعلك؟

* لقد قال عنى فى عام ١٩٧٥: إننى رجل شجاع.

* هل صحيح أن لديك ١٢٠ مليون دولار، وتشترك فى ١٢٥ مجلة تصلك فى السجن؟

* لا يوجد مال معى، كل هذه شائعات، ولا أتلقى أكثر من عشر مجلات لأقرأها، ومعظمها بالإنكليزية والفرنسية.

ولقد تعلمت الفرنسية مؤخرًا فى السجن من خلال الكتب، ومازلت أرتدى الحذاء الذى كنت ألبسه عام ١٩٩٤ فى السوادن.

* ماذا عن زوجتك المسلمة؟

* لقد فقدت الاتصال بـ «لينا الجراح» التى تزوجتها بعدما تعرفت عليها فى دمشق؛ حيث كانت تعمل طبيبة أسنان.

* قالت: إن لديك وثائق عن بعض زعماء الدول العربية، من هم هؤلاء الزعماء؟

* لن أذكرهم ولكن برسالة واحدة إلى مجلس الأمن الدولى.. فإننى قادر على إغراق بعض زعماء الشرق الأوسط فى رمال الصحراء، ولن أضيف شيئًا على ذلك، ولن أذكر اسمًا ولدى هذه الوثائق فى مكان آمن، ويجب أن تعرفوا أننى لست خائنًا، وأن مذكراتى كتبتها ومازالت فى مكان آمن، ولم يحن وقت نشرها.

* لماذا تكره أن يناديك الناس باسم كارلوس؟

* لأن اسمى العسكرى سالم سليم محمد، ولكن جهاز D.S.T الفرنسى اختلق اسم كارلوس، وأما لقب جاكال (ابن آوى) فقد اخترعته صحيفة «الجارديان» البريطانية.

* لماذا طردت محاميك الأول فيرجيس؟

* لم أتفق معه، وأشك فى أنه يعمل لبعض الاستخبارات..

* كيف تشعر الآن فى السجن بعد الحكم عليك؟

* إن محاكمتى كانت مهزلة، وإن حربى مازالت مستمرة. ولا أحترم دولة تنظم اختطافى، كما تقوم به المافيا وتعطى الرشاوى لخطفى. وقيام الفرنسيين

باختطافى، يجعل محاكمتى غير قانونية، أما قضية توليبه فلا علاقة لى بها، وإنما الموساد قام بها بمساعدة عملاء لهم داخل الاستخبارات الفرنسية، وكان هدفها نسف علاقة الحكومة الفرنسية بمنظمة التحرير الفلسطينية. ألا تذكرون الشهداء، الذين قتلهم الموساد، مثل: محمود الهمشرى ومحمد بوضيا وباسل الكبيسى، ولم يحاكموا عملاء الموساد الذين قتلوا هؤلاء المناضلين الثلاثة، مع أن الموساد اعترفت بتلك الاغتيالات فيما بعد.

*** المحاكمة:**

فى الثالث والعشرين من ديسمبر ١٩٩٧، أصدرت المحكمة الجنائية، برئاسة القاضى «ايف كورنلو»، حكمها على كارلوس بالسجن المؤبد، وذلك فى الساعة الأولى و٢٠ دقيقة فجرًا (بالتوقيت المحلى) فى أعقاب حوالى ٣٠ ساعة وخمس دقائق من المداولات، التى بدأت فى الثانى عشر من الشهر نفسه.. وقالت المحامية الفرنسية «ايزابيل كوتان بير» التى تولت الدفاع عن ايليتش راميريز سانشيز الملقب بـ «كارلوس» (بالإضافة إلى ستة آخرين من المحامين، بينهم المحامى اللبنانى هانى سليمان، والمحامية الفنزويلية «ميلاغروس ايروريتا اورتيز»، وليس فيهم جاك فيرجيس حليفه السابق): إن موكلها يعتزم استئناف الحكم بالسجن بالمؤبد، الذى أصدرته بحقه المحكمة الجنائية لإدانته بقتل عنصرين فى الاستخبارات الفرنسية (DST)، وعميلهما اللبنانى ميشال مكربل فى شارع توليبه (فى الحى اللاتينى) فى باريس سنة ١٩٧٥، بالإضافة إلى خمسة اعتداءات، وقعت بين سنتى ١٩٧٤ و١٩٨٣، وأدت إلى مقتل ١٣ شخصًا.

وكان كارلوس فى مداخلته المطولة التى استمرت على مدى أربع ساعات، قد استبق نتائج المداولات معلنًا أنه لا يخشى الحكم بالسجن المؤبد، وأن هذه الحكم ثانوى بالنسبة له: «فأنا مقاتل ثورى لا يقر بهذه المحكمة ولا بما يصدر عنها من أحكام». وأضاف: «إنى لم أنف الوقائع التى تناولتها المحكمة. لم أنف شيئًا، ولم أؤكد شيئًا؛ فالحقيقة قائمة فى حد ذاتها، وينبغى التحقيق فيها ليتبين للعالم

أجمع أنه لم يكن هناك تحقيق فعلى، وإن كل ما تخلل المحاكمة ليس سوى مسرحية، وينبغى على كل شخص أن يحتكم لضميره».

وعقب صدور الحكم، صرحت كوتان ببير بأن فرنسا «أدانت كارلوس فى غياب أية أدلة ضده»، وأن «إدانته تخدم المصالح الامريكية والإسرائيلية ولا تغير شيئًا فى حياة كارلوس المقاتل».

ورأى المحامى «فرانسيس سبينر» الذى مثّل الحق العام أمام المحكمة، أن إدانة كارلوس تشكل بالنسبة إلى أسر قتلى شارع توليبه «نهاية فترة طويلة من العذاب»، أما كارلوس نفسه فعلق على الحكم برفع قبضته اليسرى قائلاً: «تحيا الثورة، الله أكبر».

ولما كان التصوير الفوتوغرافى فى حرم المحاكم ممنوعًا بأمر القانون، لم نر من السيد إيليتش راميريز سانشيز، المعروف بكارلوس، فى محكمة باريس الجزائية طوال أسبوع مقاضاته، منذ ١٢ ديسمبر ١٩٩٧، إلا رسم تقريبى بالفحم. فإذا بالشاب الفينزويلى الذى بدا قبل ثلاثة وعشرين عاما، بمطار فيينا، ممشوق الجسم، مجتمع الظهر والكتفين، يرمى بعين الصقر الجارح ما يشخص إليه وجهه الحاد القسمات تحت قبعة «تشى جيفارا».. إذا به بدين الرأس (الأصلع) والرقبة والجذع، ومبسوط الجسم شأن ثرثرة ولغو لا قيد عليهما، تتدلى من نظارتيه سلسلتان معدنيتان طويلتان تقعان على الكتفين.. ولعل السيد راميريز سانشيز، الموشك على تمام نصف قرن من السنين أشد المتبرمين بالنهى عن التصوير على أنواعه.

وطوال أيام المحاكمة التى قاضته بقتل ضابطى شرطة، أعزلين، ورفيق نضال لبنانى انقلب عليه، لم يفتر لسان مقاتل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، على الجبهة الأوروبية ومطاراتها وسفاراتها ومقاهيها، ولم يهدأ؛ فهو يحسب أنه يترافع أمام التاريخ ومحكمته وقضائه، شأن أسلاف ثوريين، يقلدهم تقليد المريد شيخه وإمامه، وأقرب هؤلاء الأسلاف إليه هو السيد فيديل كاسترو، غداة

هجومه على ثكنة «مونكادا» ومحاولته الأولى، فى عام ١٩٥٣ الاستيلاء على الحكم. فذهب فى محاكمته التى خرج منها مدانًا بإدانة طفيفة، لم تمنعه من الوثوب على الحكم بعد ستة أعوام، إلى أن التاريخ وحده هو القضاء الفصل فى مثل العمل الثورى، الذى نهض إليه. ومن يحتكم إلى قضاء التاريخ، ويأتم بلينين (والسيد إيليتش يحمل اسمه تيمنًا به)، ينكر على العدالة البورجوازية، وعدالة الإمبريالية والصهيونية والموساد، بحسب ثورى السيرك الكارلى (نسبة إلى كارلوس) وبطله، الانتساب إلى حق أو شرع أو قانون.

وعلى هذا لم يكف بطل القصص الثورى، وصنيعة الصحافة والخوف الأوروبيين فى العقد الثامن ونصف العقد التاسع، عن التأرجح بين رواية أفعاله الملحمية وتعمد البعث على الضحك فى معرض مقاضاة بجرائم قتل عادية، وقد لا يكون التعمد هو السبب الأول فى هذا التأرجح، ثم فى غلبة الإضحاك البائس على الملحمة المزعومة والبالية. فما لا يغالب فى هذه المحاكمة، وفى خطابة كارلوس، هو يقين بخروج الدور من جلد الرجل المتصدى اليوم، لأدائه والمضى على هذا الأداء.. فالرجل السمين والمتبرج والمتأنق، والمتخلف عن ماض يحسبه مجيدًا على حين لايشك حضور المحكمة، فى كون هذا الماضى تافهًا ومخجلاً، هذا الرجل يشبّه على نفسه تارة إحياء ماضيه، ثم يعود فيمتثل لتبدد هذا الماضى، ويقنع من بعثه وإحيائه بخطابة مدوية تارة ثانية. أو ليس ضعف اشتراك الخطيب مع جمهوره فى يقين واحد، هو العلة فى نكوص المزاج عن الامتزاج؟ أو ليس ضعف الاشتراك هذا هو العلة الوحيدة؟!

وليس معنى هذا عزلة كارلوس عن الثوريين ومناضلى العالم أو وحدته العالم ثالثية أو العربية والإسلامية، فأحوال الرجل، وأحوالنا معه، فى رواياته وأخباره، اليوم وربما فى الأمس، هى كحال فم الظلال، فإذا تكلم هذا الفم تلفظ بظلال الأمس والبارحة، ولم يخرج كلامه مخرج العبارة المعربة عن مقاصد وأفعال وأشياء معاصرة وحاضرة. وتصرف هذه الحال الكلام، على الرغم من التلفظ به الآن وفى الحال، تصرفه إلى فضاء أجوف تتردد فى جنباته الأصداء

غير المسبوقة بقول مستقيم، فكأن الأصداء سبقت الأصل، الذى ترده وتحاكيه، وتقدمت عليه زمنًا وقوة ومكانة.. وقد لا يكون السبب فى هذا الفرق بين «وقت كارلوس»، وقت الحوادث التى يطلع منها، ويصدر عنها ويرويها، وكأنها موقف صوفى من مواقف الوقت والزمن، وبين وقت عامة الناس، ووقت فهمهم المشترك والمقسوم بينهم، وحده؛ فهو ـ من غير ريب ـ يخبر عن وقت يحسبه بطوليًّا، ويحسب كذلك أنه لا يمارى فى بطولته أحد غير «الموساد» و«الإمبريالية الأميركية». ويحسب كارلوس ـ من وجه آخر ـ أن هذا الوقت مقيم فى صفته، وعلى هذه الصفة، لا يغادرها ولا يتحول عنها؛ فلا يخطر بباله جواز انحطاط الحوادث ووقتها، من مكانتها المزعومة التى يزعمها هو وأصحابه لها، إلى درك الأخبار عن مغامرات «النجوم» العاطفية والجنسية والتجارية.

ولا يحدس كارلوس فى النسب الذى يقيمه التاريخ والتذكر، أى الناس الأحياء، ولو من جمهوره، وبين وقائعه وأيامه وأفعاله هو، ووقائع اليوم و«روائعه»؛ فيبدو سادرًا فى حسبانه أن المعنى الوحيد الذى تنم عنه أفعاله، إنما هو المعنى الذى ألبسه هو ـ كارلوس ـ هذه الأفعال، ومعه وديع حداد وجورج حبش وغسان كنفانى وبسام أبو شريف، ومعهم «الجيش الأحمر اليابانى»، وفريق الجيش الأحمر الألمانى، و«العمل المباشر» الفرنسى، و«الألوية الحمراء» الإيطالية.. إلى اليوم.

أما جواز نسبة أفعال «الجماعة» الجزائرية المسلحة، وهى جماعات كثيرة، ومثلها أفعال الجماعة المصرية وحماس والجهاد الفلسطينيين، والأجهزة الحرسية الثورية فى لبنان والعراق وإيران، وأجهزة «الدول» فى العراق والسودان وليبيا وغيرها. أما جواز نسبة هذه الأفعال إلى سوابق كارلية (وحدادية)، فما لايمر فى ذهن السيد إيليتش راميزيز سانشيز، ولا يدور فى خلده وخلد أصحابه المقيمين على عهده. وينص عهد هؤلاء، المضمر أو المعلن، على أن «ظروف الحرب»، ربما أوقعت ضحايا كثيرة وبريئة، سقطت فى زحمة العمليات، التى قام بها كارلوس.. ولكنها ضحايا ضرورية تسوّغ «الحرب» أو «المقاومة» وقوعها. أولاً:

هذه الضحايا ليست بشيء إذا وزنت فى كفة الميزان، الذى يزن كارلوس وجورج حبش والمقاومون عمومًا، فى كفته الثانية، آلاف القتلى الذى سقطوا فى صبرا وشاتيلا، أيام الاجتياح الإسرائيلى للبنان، و٥٢ قتيلاً فى قرية كفر قاسم، أو قرية دير ياسين حيث سقط فيها ١٥٢ قتيلاً، منهم أطفال مدرسة بكاملها.. ثانيًا: وحيث تقع الضرورة يرتفع الحرام.. والحق أن السيد راميريز سانشيز يروى بعض ملابسات ارتفاع الحرام وأحكامه؛ ففى ١٥ سبتمبر عام ١٩٧٤، وكان يابانيون من «الجيش الأحمر» العظيم اقتحموا سفارة فرنسا فى لاهاى، واحتجزوا السفير لقاء الإفراج عن رفيق لهم اعتقلته السلطات الفرنسية بمطار أورلى فى يوليو، وأحجم المقاتلون عن قتل سجنائهم، واحدًا بعد الآخر على ما كان يأمل فى الأمر كارلوس - ويقرر وريث الاسم والمذهب اللينينيين فى الساعة الثانية أن يقوم «بعملية على الطريقة الجزائرية» ويقول: «وذلك يعنى أن ألقى بقنبلتين فى مقهى عادى، وبعد الساعة الخامسة مساء ألقيت قنبلة على مقهى دروج ستور فى سان جرمان، فقتل اثنان وجرح ثلاثون». وانتهت العملية على نحو ما تنتهى القصص السعيدة، وانطلقوا بالطائرة إلى الشرق الأوسط. وهذا، وأمثاله، هو ما ينبغى أن يحمله الجمهور، شأن كارلوس وأصحابه ورفاقه ورفاق ذاكرته.

ولا يضعف حماسة الأصحاب والرفاق المتذكرين، نازع بطلهم وحامل لواء قضيتهم إلى رفع نصب لنفسه واسمه، لايشاركه فى هذا النصب أحد، على خلاف أسلافه الثوريين، الذين كانوا يكنون ضغينة ما لأنفسهم؛ فيعتقدون أن صاحبهم قام برياضات نفسية طويلة ومعقدة؛ للتأكد من قدرته على إلباس وجهه ذلك القناع الصخرى المنحوت بدقة، فلا يعود فى إمكانك أن تستشف أى شيء من خلاله!.. وهو فى أثناء محاكمته فى القضية الأولى التى يحاكم فيها لم يترك لبسًا فى شأن تأليهه نفسه، وتمتعه الخالص برواياته ووقائعها. ولعل إفراده نفسه بأكاليل الغار، ولو ذابلة، من علل إخراج السيد راميريز سانشيز من هيكل رجال التحرير الشعبيين. بل يبدو الرجل فى مرآة خطبه الطويلة وهذره، فاتحة انحطاط

حركات «التحرير الوطنية» إلى الهاوية، التى انحطت إليها على يد أشباه كارلوس، مثل: «الرئيس جوزمان»، قائد «الدرب المضىء» فى البيرو، وقادة «الجماعيين» الذين «يتمتعون» بنساء الجزائريين، على قول «عنتر الزوابرى» ردًّا على شائعات مقتله، وعلى يد قادة بعض «الدول» الرائدة فى هذا المضمار.

وينبغى أن تدعو ولادة هذا النمط من الأبطال فى ربوع فلسطينية وعربية، إلى النظر؛ فالتبعة عن تسويغ القتل بذريعة «ظروف الحرب» و«المقاومة» و«قتال الإمبريالية والصهيونية» و«التحرير» هى تبعتنا الثقيلة، التى تستدعى الخطر والحيطة حتى لا يفقدنا متهور، انتحارى النزعة، ما أنجزته أمة بامتداد تاريخ طويل من الألم والمكابدة والمعاناة.

* * *